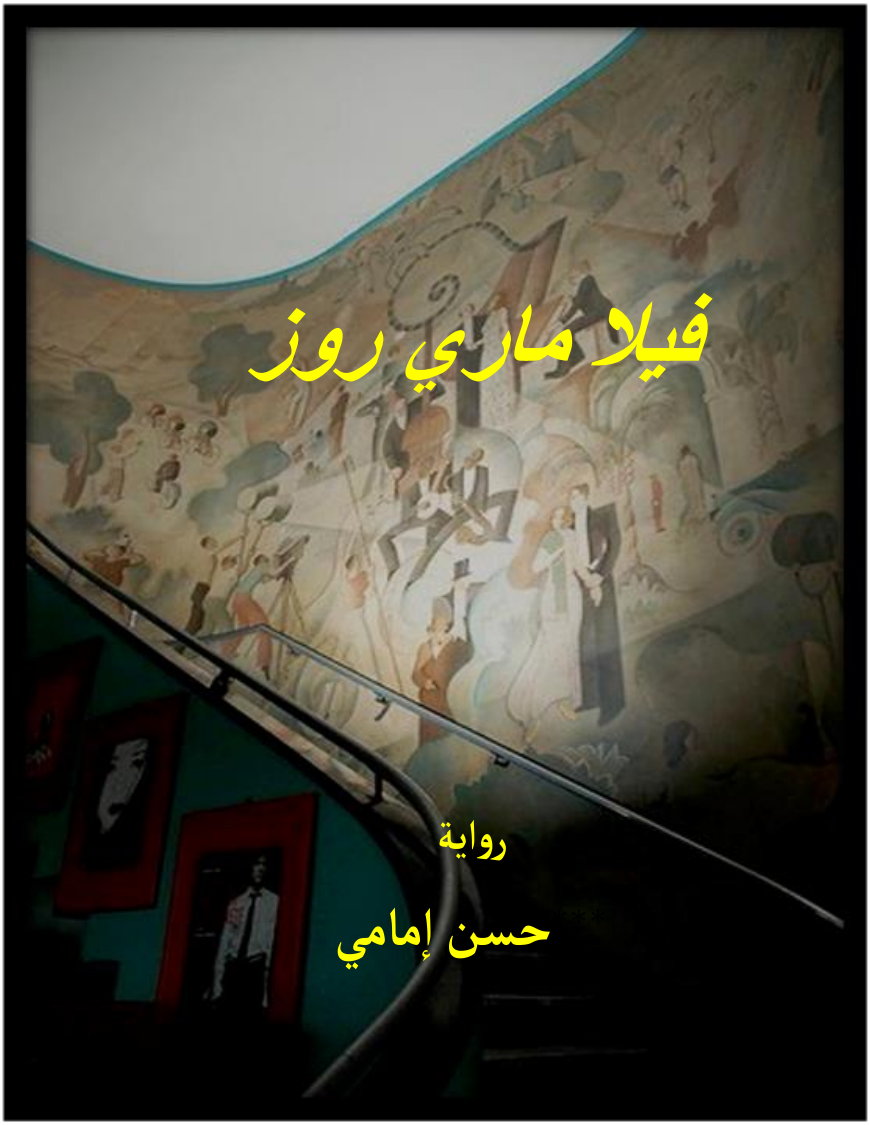
فيلا ماري روز
رواية
حسن إمامي

غالبية المعمرين الفرنسيين الذين استقروا بمدينة مكناس اختاروا مواقع استراتيجية للسكن كما للعمل. طبعا، كان تخطيط المدينة محكما في صنع جمالية تحقق حلم الإمبراطورية الكبيرة لدولة فرنسا. هذه التي رغم التحولات السياسية في الحكم وتطور نظم الحق والقانون والتحول من الملكيات إلى الجمهوريات وتجاربها الأولى فالثانية حتى الخامسة فيما بعد، بقيت معلّقة بحلمها الكبير، فرنسا الكبرى الممتدة عبر القارات، المنافسة لمثيلاتها والمحافظة كما المدافِعة عن مصالحها.

ومكناس، المدينة التي عشقها الماريشال ليوطي، والتي عشقها الفرنسيون لجمالها حتى اعتبروها فرساي المغرب، وباريس الصغرى، هي المدينة التي سحرت من بعيد ذهن (ماري روز). المرأة الفرنسية التي شكلّتها فلسفات الفن والحرية والموسيقى والرقص، والتي سحرها خيال الشرق وآفاق الإمبراطورية الفرنسية الممتدة.

تسمع كل حين بإغراءات العيش ومغامراته المدهشة. يمتلكها جزء من المغامرة في الاكتشاف. قسط من الزحف على الخريطة. رؤية ماذا يقع هناك، وكيف يتحقق من أجل فرنسا، ومن أجل ماري روز ؟ !

اكتسبت ماري روز اسمها ولقبها. كانت رشيقة بملامح عصرية وشعر منسدل جعلته في تسريحة يميل إلى الحمرة الوردية معها. ناسب تبرعم خديها بلون قرمزي لافت. كانت التفاتتها الحيوية والسريعة

في كل مناداة طابعا شخصيا يُكسِبُها جرأة وفضولا ويقوي شخصيتها كما حضورها ووزنها. زادها التعلق باسمها وبسحره حينما تعرفت على دلالاته المتعددة. رغم أنها قد تتوتر نفسيا حين مقارنة اسمها مع أسماء شخصية أخرى. لحظات ضعف شعرت معها بأن اسمها تقليدي جدا، كلاسيكي بلغة الأنوار وباريس القرن العشرين. لكن فرحتها وتحديها قوّى شعورها الإيجابي على حساب السلبي. هكذا كان فؤادها يراقص الحلم، حلم البحر والأزهار. ماري أميرة البحر، وروز زهرة الورد. لن تحتاج سوى لموسيقى عازفة لسمفونية خيالية لم تلحّن بعد أو إنها جامعة لأجمل المقاطع والنوطات. تُرى، هل يُسعفها البيان في ذلك؟

لم تكن باريس خلال ثلاثينيات القرن العشرين كباقي العواصم العادية. مزجت بين السطوع العلمي والفلسفي وبين امتدادات الحرية الوجودية الجديدة التي أنتجها العالم الليبرالي وثقافته وفلسفته الاستهلاكية. جنة مادية للفن وللمتعة وللموسيقى. حتى إن الأمريكيين انتقلوا لباريس لكي يحققوا حلْمهم في ذروتِه، بعيدا عن تجليات المنافسة الرأسمالية الشرسة في الاقتصاد والمال. قانون الغلبة للقوي، جعل الشعور المرهف المدفون في الإنسان يبحث له عن ملجإ أو مخبإ ومنقذٍ له من الوقوع في وحشية الرأسمالية التي أصبحت إمبريالية تبسط نفوذها بالسلم وبالحرب.

لم تحتَجْ ماري روز لكل هذا الوعي المباشر بهذه الأمور رغم حضوره بشكل من الأشكال من خلال تفاعلات الحكي والإعلام. كانت ترى الحركية التي تغمر الفنادق والمطاعم والحانات والملاهي الليلية كما شوارع باريس ليلا على الخصوص. لو كان بمقدورها لجعلت الرجل يكدح في الدنيا والمرأة تنعم في الجنة حتى يلتحق بها مساء. هكذا تمنّت أمام رجل دين غامر بمحاورتها إجلالا للجمال الذي جذبه لمحاسنها.

ماري روز، هو كذلك اسم الفيلا التي بناها المهندس (بيير دفيرمان) بمواصفات عصرية راقية. فيلا تقع في زاوية تقاطع شارع محطة القطار الصغيرة ومطعم وحانة (Roi de la bière)، الشارع الذي ستصبح تسميتُه فيما بعد بشارع الأمير عبدالقادر. تقابُلٌ فجّرَ التناقض الصارخ بين تسميتين ترمزان لعهدين. وها هو الأمير عبدالقادر قد تربّع على امتداد شارع محطة القطار الصغيرة كأنه زحف وطرد المعمّر على بوابة السفر بلا عودة، جامعا متاعه وعتاده ومغادرا بلادا احتلها واحتلّته. وفعلا احتلّته ما دام بعض من الفرنسيين قد تعلّق بمدينة مكناس ولم يشأ مغادرتَها. أصبح الاحتلال النفسي أقوى من الاحتلال المادي أو إن السحر انقلب على الساحر فكان للمكان وفضاءاته محل سكن وسكينة لا تفارقان صاحبها أو صاحبتها. كما كان للأثر المادي والثقافي واللغوي وغيره من أشكال الآثار وقع سوسيو ثقافي واقتصادي وسياسي على ساكنة مكناس كما على ساكنة المغرب إلى يومنا هذا.

. تسكنني المدينة بحيث لا أستطيع مفارقتها. كم من بناية وضعت هندستها وتصميمها وأسسها، تصوّرتُها مليئة بالحياة فكانت بها حيوية عيش وأرواح أشخاص. أجهش كلما تذكرتها. الآن أفهم لماذا اختار المرحوم ليوطي وأوصى بدفنه بالمغرب.

. لا عليك سيد بّيير. يجيبه البقال الذي أصبح بدكانه الجديد مقابلا واجهة الفيلا. الدوام لله. يذهب أشخاص ويأتي آخرون.

كان هذا الحوار آخر تواصل تمّ مع سيد بّيير من طرف ساكنة الزنقة الصغيرة المؤدية إلى شارع الجمهورية والذي سيصبح بتسمية شارع محمد الخامس فيما بعد.

سينتقم المكان من سيرة الزمان التي رسمها وجود مستعمرٍ استمر لعقود، وإن كان بالمقارنة مع الجارة الجزائر لم يدم تواجده سوى أربع وأربعين سنة، في مقابل مائة وثلاثين سنة بالجزائر.

***

تُقابل الفيلا قنطرة مقوسة الشكل، يعشق المار عبورها في نزهة تمزج بين امتدادات الرؤية يمنة وشمالا وبين عبور قطار من تحتها فوق سكة حديد متدرجة كتِنّين لامتناهي الزحف، وكأن الراقدات الخشبية عمود فقري متتابع الحركة تتراقص مع كل عبور. يتخيّلها (بّيير) متوالدة مع تموّجات التنين الراقصة في الاحتفاليات الآسيوية التي وُصفت له في مناسبة ما. بينما تكون جولة الغدوة أو العشي المقترب من الغروب أوقاتا مرغوبة عند ماري روز لكي تطل على حدائق المدينة الجديدة. وحينما يكون الحلمُ حلمَ إمبراطورية فقد يرى في الشتل شجرة كبيرة، ما دام يعيش الغد وليس الحاضر دائما. كذلك هي ماري روز، ابتسامتُها وضحكتُها التي ترافق محياها ورَدُّها في التحية والسلام والحوار، كلها أمور تحمل غيث هذا الحلم.

تحمل معها في رومانسية جميلة سحب خيال مهندسين زراعيين ومدنيين تعرّفتْ على مشاريعهم الرائعة والخلابة. هنري بّروست، ومعه جون كلود نيكولاس فورستيي. حدائق إيميل بّانيون في الوادي السعيد بمنطقة تولال الثالثة في اتجاه طريق العاصمة الرباط. كما تعتبرها جنات خضر سابحات فوق خريطة المغرب

وفوق دائرة عيشها الذي اختارته مع زوجها (بيير)، داخل مدينة مكناس.

من باب الفيلا تستطيع أن ترى امتدادات الهضاب المتموجة والمنحدرة في اتجاه الجبال المقابلة: جبال زرهون. كما ترى أفق الشارع الصاعد والموصل إلى مرافق المتعة والمسرح الكبير الذي سيصبح قاعة سينما ريجون فيما بعد. ولو نطق المكان لاستحضر واحتضر:

(كيف لمسرح بُني بمواصفات جمالية وهندسية راقية وفاتنة أن يتحوّل إلى مجرد قاعة للسينما يتم فيها بث الأشرطة في ظلمة حالكة ثم يكون الانصراف إلى حال السبيل؟

وكيف انتقل إلى مكان مقفر مهجور حتى طمعت فيه أنياب ديناصورات العقار فهدمته بجرافاتها لكي تراكم طوابقه الإسمنتية الصماء مثلما تراكم ثرواتها على حساب الجمال والفن والذوق الحياتي الرفيع؟).

هي ذاكرة المكان التي تنطق بين السطور لكي تسجل للتاريخ صرختها. هي ذاكرة عائلة ماري روز حين زيارتها للمغرب بعد عقدين من الغياب. استطاعت هذه العائلة أن تؤسس جمعية لقدماء أسر مكناس وأن تجعل زيارات منظمة للمدينة. كما استطاعت أن تدافع عن ممتلكات الفرنسيين المنسية بالمدينة الجديدة حمرية ومرافقها الفلاحية والصناعية الممتدة خارجها.

أسئلة فجّرتها ذاكرة المكان مع هؤلاء الأشخاص إذاً، وليس مع عقل ماري روز، هذه التي لم تعِش كفاية حتى تشاهد الانهيار الدرامي الذي هدّم كل هذا الجمال في (باريسها الصغيرة: مكناس) التي أحبّتْها حتى الجنون مثلما أحبّت العطر والموسيقى والرسم كذلك.

***

كان منظر القطار وهو يعبُر جلسة المهندس (بيير)، مرتشفا قهوته فوق الشرفة العلوية الكبيرة التي تحتضن البوابة الرسمية للطابق الأول والأخير منها، بهيجا وحاملا لدلالات وأخبار. مقطورات عسكرية وأخرى للبضائع والعتاد، ترافقها أخبار التنقلات العسكرية والمدنية، والأسماء والأسر التي تربطه بها علاقات اجتماعية أو مهنية.

يحرص على جعل مكتبته متضمنة لذاكرة مكناس. بعض التقارير التي طبعت والتي دونت لأحداثها ومشاريعها وسياساتها. بعض الصور التي نُسخت مكبَّرة لأهم المعالم الجديدة. طلعة الجنرال ليوطي فوق حصانه الأسود في ساحة الهديم. محطة القطار وانتظار بعض الفرنسيين لوصولٍ أو ذهابٍ، انطلاقا من فضاء الاستراحة والترفيه: Roi de la bière•. تلك إشاراتٌ تجعل بيير من ضمن الجماعة المدبرة للمدينة. حتى التوسعات الجديدة التي ستخترق

البساتين الممتدة والمروج المتشعبة والتي تحاذي في تماس أراضي بعض الجموع والقبائل، بقدر ما يخطط لها هندسة بقدر ما توتّرُه كانتظارات في الإنجاز. ولو كانت إنجازات قيصرية تستدعي التدخل بالقوة والسلاح باسم المصلحة العامة للمدينة.

ينتظم في قبو الفيلا بعناية كبيرة كل ما يحتاجه (بيير دفيرمان) من معدات لعمله في الهندسة، سواء منها الخرائطية أو الميدانية والطوبوغرافية. وإذ تمتد طاولة عريضة بقياس المترين على متر ونصف، تجد الرفوف كذلك وقد اتسعت لتناسب الأشياء والأدوات. لكن زوجته ماري روز دفيرمان تحرص على جعل حدود مجالية لهذا القبو. هكذا تركن في الزاوية اليسرى من الدرج النازل لوازم البستنة والنافورة المعدنية التي لم تتهيأ لها ظروف تزيين و تشريف الحديقة. حديقة تقسم زاوية الشارعين الفاصلين بين الذي يؤدي إلى مطعم وحانة (ملك الجعة Roi de la bière) والآخر الموصل إلى محطة القطار. تنفتح الجلسة إذا على الأشجار وعلى البنايات الجديدة المعدودة.

في زاوية مظلمة من القبو يتفق الاثنان على جعل مدخرات القنينات المعتقة وبعض صناديق خشبية تحتوي مواد غذائية تناسبها برودة ورطوبة المكان.

هكذا هي فلسفة وسياسة بيير دفيرمان، بقدر ما هي عامة وملتزمة بالتخطيط الكبير للمدينة الجديدة، بقدر ما هي خادمة للذات وملزمة لها بتأثيث جمالي خلاب لفضاء عيشها.

كل بناية تترجم رونق الطبيعة والأشجار الخلابة والورود والأزهار المبهجة. وفيلا بيير وماري روز منتظمة داخل مشروع تشكيل بزخرفات الأعمدة الرومانية كما ببعض التماثيل الصغيرة التي تمثل أيقونات تاريخية وأسطورية.

قد يعلق في مناسبات لاختياراته هذه، بتشبيهها بمنجزات الحضارة الرومانية، خصوصا بالموقع الأثري وليلي الذي زاره كم من مرة، حتى إنه كان ضيفا مكرما عند بعض المعمرين الذين اتخذوا لهم ضيعات هناك فكانوا قريبين من حملات الاكتشاف والتنقيب والترميم للمدينة الأثرية و تماثيلها:

. يمتلك الرومان فكرة قوية عن الخلود. يعرفون أن المجد يكون بالقوة، لكن الخلود يكون بالجمال. كل إقامة نبيلة تمتلك لونها الخاص. أحواضها وفسيفساؤها وتماثيلها وشكلها الهندسي. في الحقيقة، ما يزال الرومان القدماء متفوقين علينا في فلسفتهم العمرانية. إننا مدينون لهم بكل مخططاتنا الجديدة. فكيف لا تريدون لفيلا ماري روز أن تكون تحفة وأيقونة، خصوصا وأنها تسكنها شعلة ملائكية تنبض بالعشق والحياة. لقد كانت الفرصة كبيرة جدا لتحقيق حلم مدينة جديدة، هي روح مدننا الفرنسية، روح باريس السفيرة المتنقلة معنا داخل أفئدتنا بعطورها وبسحر وجمال عمرانها. عملية تفويت هذه المساحة التي كانت جنان زيتون كبيرة محبسة على أكبر مساجد المكناسيين تقديسا وتعظيما، وقف على المسجد الأعظم بالمدينة العتيقة، ووقف على الحرم المكي، وثالث على الحرم النبوي، كافية لكي نبرهن للمغاربة أن هندستنا حياة جديدة مرغوبة. فهل تكفينا هذه المساحات لأجل هذا الحلم ؟!

كان بيير دفيرمان يتميز بأناقة لباس وعطر مختار وذوق منتقى في أسلوب العيش. يعي بأن كل واحد ممن يعمل معهم يتحمل مسؤولية مشتركة في الرسالة الحضارية الفرنسية الخادمة للمصلحة العليا للدولة. وكلٌّ يعمل لكي تمثل المدينة الجديدة بمكناس العاصمة باريس. يجد بيير في ذلك مفخرة نفسية تحارب الصورة السلبية حول من آثر الذهاب إلى المستعمرات وابتعد عن أسلوب الحضارة المتجدد بباريس على الخصوص. نوستالجيا وحنين تقوم باريس الصغيرة حين نطقها بإدماج النفسية في اليومي وجعل الخيال يؤثث الوعي بمُوهِم التطابق والحلول بين مكانين في واحد: باريس ومكناس.

رغم أن سهراتهما كانت صغيرة وبسيطة بالمقارنة مع مثيلاتها المنظمة من طرف كبار المستثمرين والمعمرين والعسكريين، فإن رواد فيلا (ماري روز) شكلوا نخبة فريدة ومتميزة، ضمّت المثقفين والفنانين والضيوف الذين يحلّون بالمدينة من مختلف بقاع العالم. وهكذا كان لبيير كذلك حظ من الاعتراف والتقدير، حيث لم يكن موظفا بسيطا، بل صاحب ذوق وفن وثقافة وعطر كذلك. عطر يتوزع بين الجنسين، ويتشكّل في قارورات تميز ما للأنثى مما للذكر. هي قصة رائحة وتاريخ ذاكرة يجتمعان داخل روحين، امتلكاهما بعد أن غمرا المكان وفضاءاته كما غرفة نومه.

يوم التقيا ذات مساء باريسي وداخل فضاء محل للعطور. استأذنها في أن تختار له بين نوعين وقارورتين. كان سحر الاختيار من سحر الانجذاب الذي وقع بين فؤادين ونظرتين ولمستين. كانت بداية

تعلق وتعارف اكتمل بزواجهما معا وإقامتهما في مدينة مكناس. لم تكن ملامح بّيير بجذابة كثيرا. قسمات عادية لفرنسي أنيق. شارب رقيق وذقن دقيق وخدّان محفوران مناسبان لجسد رشيق. استحسنت ماري روز وصفها السريع لطلعتِه يومها، في لباسه المناسب لجولة مسائية بين المحلات التجارية وداخل مملكة العطر الفرنسي الجديدة. لكن بّيير رأى فيها كل الوصف المكتمل الذي بناه عبر سنين حول المرأة التي قد يرغب في الارتباط بها. رؤية وجد فيها صعوبة تنفس وارتباك كلمات استشعر معها خوفه من انفلات نجاحها وتواصله خلاله معها، مثلما رأى في ماري روز لوحة مرسومة بجمال الألوان، خصوصا وأنها لوحة حيّة سيعمل على امتلاكها والحلول فيها حبا وعيشا.

من يمر بجانب الرصيف قد يسمع بعد الثامنة ليلا آلة البيان وعزف ماري روز عليها. وحيث الهدوء الممتد مع جنبات الفيلا من الأنام ومن مرور القطارات، كان ذلك البيان بني اللون وداكِنه، والموقَّع بماركة عالمية رفيعة، والمصنوع من خشب الأكاجو اللامع، لمسة هارمونية مخترقة. تكون المقاطع الموسيقية المسافرة مع الليل موزعة بنوتات تخيط الظلام الخارجي لكي يزيد في شحن أنوار الفيلا وأرواحها. قد تعزف لشارلز براون مثلما تعزف لسوزي سوليدور. تنتصر لوقع الطرب على الآلة في الانتشاء بكل الألحان ويسافر الذهن مع محمول الكلمات والأشعار المضمر والمخزن في الذاكرة والمراقص للفؤاد والموجع للحنين كل حين.

قد تلاحظ ماري روز حين التفاتةٍ أطيافَ ظل أو حركةٍ منعكسين من بعيد. تزيد من ضغطها على "أوكتافات" البيان. تترجم الفخمة منها في بعض الأحيان حالة خوف محتملة مثلما تترجم الأخرى استئناسا

وإبعادا لكل فزع من العتمة المهيبة. لو هدأت حانة (ملك الجعة) من صخب زبائنها لسمع هؤلاء نداء البيان الذي يحمل توقيع ماري روز. لكنه نداء خاص في التعرف عليه وعلى صاحبته.

قد يقف شخص ما أمام الفيلا دون اختباء مندهشا ومعجبًا بطرب هذا العزف الآتي من الداخل. مجرد إطلالة واستراحة بين مقطعين يحفزان ماري روز على المضي في تسريع الإيقاع الراقص وتوزيع أجمل الألحان المتاحة في العزف. يكون ذهنها محلقا بين المقامات، مرفرفا فوق سحبها الجميلة.

يندهش الواقف لرؤية البوابات الكثيرة الموزعة بين مدخل الحديقة والطابق السفلي والدرج المؤدي للدور العلوي والشرفات التي تنفتح بحجم الأبواب لتستقبل أشعة شمس تخترق الأركان والزوايا، أو ترسل نور مصابيحها لتقبّل سكون الليل وتؤنسه في وحدته الخارجية الصامتة. تصبح الفيلا وردة من نور داخل حقل الكون المبهم في عتمته، فيكون الاعتراف بهذا الموقِّع بتناغمه على حساب الموغل في صمته. أبهجها تشبيه المهندس بّانيون يوم سمعتْه:

. أن تكون البناية الجميلة مثل زهرة القمر أو مسك الليل، ليلية الإزهار، كذلك فيلا ماري روز، واسمحي لي بالتجرؤ: كذلك ماري روز. أليس اسمك مركبا ومحتويا للزهرة ؟

إنما تساؤلها وإلحاحها عليه كل حين مجدّدة به العهد العاطفي في كل تواصل مع زوجها بّيير:

.قل لي حبيبي، هل سبقت الفيلا أناي في التسمية أم العكس ؟

.حبيبتي الغالية، كانت الفيلا مشروع بناية وشكل لوحة مخطوطة لم ترتدِ ألوانها وفساتينها. وحينما رأيتُك تحوّلت إلى ما يناسب حضورك وروحك وعشقي لك.

*

رغم تكوينه العسكري، اتخذ بيير دفيرمان لمهامه الجديدة بدلة مدنية، لكنه حافظ على لياقته البدنية من خلال تداريبه المستمرة التي بقي وفيا لها أسبوعيا داخل ثكنة عسكرية مركزية بالقرب من ساحة السلاح. هناك، على مدار الساحة، تتوزع البنايات والمرافق العسكرية في امتداد يعانق الحقول الزراعية والبساتين، كما يتوازى مع خطوط السكك الحديدية ومع الحي الصناعي الناشئ حينها في اتجاه الطريق إلى مدينة فاس.

."بيير الإفريقي".

هكذا كان يناديه المقيم العام والمشرف على منطقة مكناس.

. لم تحجبك إفري عن أشعة الشمس يا بيير. إفري أصل الكلمة والقارة: إفريقيا. إفري يا بيير، تعني الكهف أو المغارة في لغة الأمازيغ. هي صورتنا عن إفريقيا كمغارة مجهولة نقوم باكتشافها، كعذراء نقوم باختراقها. لا تخجل من شمسها كما من كهوفها. مفارقة التسمية والفضاء !

لقد استطاعت أشعة الشمس أن تلحّف بشرة بيير بسمرة وتجعل سحنته حمراء باهتة يتقدمُ صفحتها شاربان يعتني بهما كثيرا لكي يبدوَا دقيقين ورقيقين. وجه صغير قد لا يناسب قامته الطويلة نسبيا. تكتمل ابتسامته حين رؤية ماري روز وإقبالها على محياه

شوقا وقربا أو تقبيلا. كما يذوب شعوره بنقص ما تركتْه مرآة ما في مخيّلة تصوّره حول ذاته.

لم تكن ماري روز الآتية من أجواء باريس التحررية لتتحمل ذلك اللون البني الذي يغلب على بدلاته المهنية. استطاعا معا أن يوفقا بين اللباس والوظيفة. أن يجعلا من مختاراتها المدنية حلّة مناسبة لكل المهام التي يرتدي فيها بيير ملابسه. وبحب الفصول يتدرج اللباس بين الأقمصة والمعاطف والسراويل الطويلة والقصيرة. تكون لدراجته النارية (تيروت) مهمات العمل الميداني والتنسيقي مع المرافق المتفرقة هنا وهناك. أما السيارة (سيمكا 8)، ذات اللون الأخضر الفاتح، فكانت لجولاتهما المسائية وسفرياتهما المختلفة ونزهاتهما في ضواحي المدينة كذلك.

كانت ماري روز متشبعة بثقافة التحرر التي سادت الأوساط الباريسية وصالوناتها الثقافية والفنية. كانت باريس إذ ذاك عاصمة عالمية تستقطب نجوم العالم في الرقص والغناء، وكانت فلسفة الحرية قد وجدت جزيرتها لكي ترسو سفينتها في موانئها وتسبح في شواطئها وتتذوق فواكهها اللذيذة. في كل مرة، كانت النوستالجيا والحنين هما ما يدعوان إلى هذا التذكر والتكرار لفضائل عاصمة الأنوار. تكون هذه العبارات وما شابهها كجرعة يومية تشربُها روح ماري روز حتى تبقى في استنشاق لهواء باريس. وكأن الحرية هواء تنفس، وكأن هواء التنفس هو الحرية. وتتنوع العبارات المتحولة إلى حكم فلسفية ووجدانية وجودية.

لكن ذلك التنوع صنعه العطر الذي قد تختاره ماري روز كل مرة، أو الذي يختاره بيير لها. وقد يستغرب المرء من قدرة أنواع العطور على خلق تنافس أو صراع أو غيرة أو التحام وانصهار لروحين أو بين روحين. لدرجة ان ثقافة العطر ستتجذر أكثر وسيعمل كل منهما على توسيعها بما جدّ في عالم العطور وثقافة صنعه واستعماله وتأثيراتها خصوصا وأنه الجامع الأول بينهما والذي أحدث وقْع الغرام: Le coup de foudre.

و رغم كل هذا الذي يقع وسيقع، يتأملها بيير بعمق حب، وبعمق تفهم وشفقة لاختيارها جواره بدل أحضان باريس الكبرى، لكنه لا يملك حلاً آخر في خلق أجواء مرح بديلة، هنا بمدينة مكناس، سوى بفتح فسحة حرية إضافية تحلّق في أجوائها ماري روز العاشقة للجمال والفن والبيان والرائحة الزكية.

ماري روز حينما شارفت الثمان وعشرين سنة من عمرها، وغذّت روحها الأنثوية بأنواع العطور ومُوضة اللباس والحذاء والرقص والعشق والعناق، كان قد آلمها إنذار الحرب العالمية الثانية وزحف النازية على جزيرة أحلامها الباريسية. كانت بداية الصدمة التي ستوتر النفسية، وتجعل هذه الأحلام مجرد سحب عابرة سرعان ما ستنقشع ولن يعود لجلال بياضها من حمولة تروي فؤاد ماري روز. ربما لذلك اختارت ووافقت على الزواج مع بيير والعيش معه فيما بعد بالمغرب.

كانت ماري روز قد زارت المغرب في سنة سابقة وبدعوة من بيير. رافقتها مجموعة من الأسماء. ثلاث نسوة ورجلان. كانت لوحة النسوة في الظهور اليومي بثقافة الفساتين الخلابة والفاتنة بألوانها

وقبعاتها المزينة بريش يجعل كل واحدة في تباهي طيور الجنة أو ذاك الطاووس المتخايل بزهو ألوانه. أما الرجلان، فعنايتهما بالأناقة والترفيه والتنكيت مع المجموعة، عضدت صفة الجنتلمان التي يحرص كل واحد منهما على أن يظهر بها ويمثلها.

يوم قررت ماري روز الاشتغال بالتعليم، صادفت القوانين الجديدة التي اعتمدها الوزير الفرنسي جاك شوفاليي. قبْلَها وباعتماد قانون أكتوبر 1940، تم منع اليهود من ممارسة الوظائف العمومية في مؤسسات الدولة. كانت ماري روز خرّيجة مدارس التكوين التي تشبَّع طلبتُها بالفكر الاشتراكي واللائكي. هؤلاء الذين شكّلوا دعائم الجمهورية الثالثة. بوادر الاختناق جسّدتها كذلك الكتب الممنوعة من التعلم في المدارس العمومية مثل مؤلفات إميل زولا وكوليط وغيرهما...

هكذا أصبحت رؤية ماري روز لوجهها وجمال شبابها أمام المرآة تضايقها هذه السحب الغادرة والداكنة التي اختلطت مع أحلامها الوردية فعكّرت صفوها، كما اختلطت معها رائحة البارود والحرب المشتعلة في أوربا.

وككل طائر يحلم بالحرية، اختارت اليمامة شمس المغرب. علّها تصفو بروحها داخل عالم راحة وجدانية وداخل هواء جديد. علّها تجعل فضاء نقيا جديدا لعطورها ولشمها واستنشاقها إلى درجات الانتشاء الكبير.

وكأن الشرق المرسوم في لا وعي ماري روز هو لاستراحة الروح من تجارب العقل وشقاوة فشله، ومن كد الجسد جريا وراء غدده. وكأن

إفريقيا امتداد لهذا الشرق المتخيل داخل ثوب الزمن القديم. كانت إفريقيا هي الشجرة السامقة التي ستحط فوقها اليمامة وتعترش أغصانها وتتفيأ بظلالها. قارورة عطر بكر ستسبح في ازهارها حواس ماري روز وجسدها كما فؤادها، أو مثل نحلة مكتشفة لأنواع أزهار جديدة وبعيدة عن خليتها الأم.

***

{حينما تصبح الجنة قفصا كبيرا، تشقى الروح المحلقة داخل الكيان، تتشرنق داخليا وتبحث عن أجنحة للتحليق، بعيدا ولو في اتجاه الشمس لدرجة الاحتراق، كما الفراشات}.

{سأكون وفية لرجل واحد. سيكون زوجي. سأسطّر للعالم الخارجي حدود مساهمتي في بنائه وحياته، وسأوسّع من امتداد عالمي الداخلي، الروحي والوجداني. أنا الفراشة الوفية لألوانها البهية ولعطرها الربيعي ولشمسها الصباحية. سأغوص داخل الموسيقى ونوتات البيانو، رقصي الآن بأناملي، وخطواته بقياس نظراتي التي تجس الاستحقاق}.

{دافعت عن النسبية والواقعية، ووجدتني ضحية لهما، تأكلان من سقف أحلامي وتحليقي، وتجعلاني صغيرة داخل هذا العالم. كلما حلّقتُ بعيدا، صغُرتُ وتلاشيتُ نقطة في هباء وهباء}.

{رغم حنيني لباريس الثلاثينيات وليس الأربعينيات أو بداية هذه الخمسينيات التي جعلتني مغربية وأفريقية فإنني أعيش زمانها

الماضي في الحاضر، حيث يذوب الزمن وتبقى اللحظة بما يحقق السعادة للذات}.

{زرقة عيني هذا الصباح، ينقصها ملح ما حتى تكونان بحرا للسباحة والمغامرات النوتية الجديدة}.

{أبحث عن بيير داخل قبو الفيلا فلا أجد له أثرا. أستغرب لسر اختفائه وكيف يظهر مقْبِلا فوق رصيف الشارع كأنه آتٍ من سفر ونازل توّا في محطة قطار. ها هو واقف أمام دائرة بصري فوق القنطرة. أيكون له سفر خارج المكان؟ ما أعلمه هو قول أينشتاين بإمكانية السفر عبر الزمن. أما المكان، فذلك اختراق لا أفهمه. كيف يستطيع بيير تحقيق هذا الاختراق؟

أحيانا، أشعر بأن شخصيته غامضة غموض هندسة هذه الفيلا التي تجمع بين الجمال والمجهول، بين الألوان والسراب الغريب}.

{يوم أراد البوح بالسر، وعدني بأنه سيأخذني معه في رحلة عجيبة تخلّد اسمينا عبر التاريخ. ذلك حلم كل فرنسي طبعا. بين الخيال والواقع، تنتظر اليمامة، كما يلقبني بيير، يوم هذا التحليق العجيب}.

***

هذه بعض قصاصات المذكرة التي بقيت داخل الصندوق الخشبي الصغير. رغم رطوبة الفضاء التحت أرضي، ورغم شحوب لو ن الخشب ونقشه الذي يزين غطاءه، بقيت المذكرة صامتة وحابسة لأنفاس التاريخ ومعها أنفاس ماري روز وإكسير عطرها الملهم.

عطر بارد سيخترق خياشيمه كل من استطاع أن يصل إليها. كل صفحة احتفظت بهذه الرسالة المشمومة، وكأنها تستنجد بالقارئ الذي سيفتح بأنامله صفحاتها، لكي يبحث عن صاحبتها، بتخيّلها بهيأتها وملامحها قبل أن يعثر على صورة لها بالأبيض والأسود في ما تلاها من صفحات. ذراعان ممشوقان وطول فاره بدا معه الساقان قويمان يحملان جسدا رشيقا يؤثث داخل فستانه ملامح الأنوثة الجميلة التي تنتصر للكائن الإنساني ولا تشترط مواصفات الوجه الفتان الذي غيّبتْ رونقه رطوبة القبو. قارورة عطر نصف مملوءة محتفظ بها داخل علبتها ومفترِشة لسريرها الذي يحتضنها في تموج شكلها ولولبية خطوطها وسحر ألوانها التي يتقن الزجاج البلوري عكسه مع النور، مع الرائي الذي يرى بحواسه كلها كما بذوقه، وليس بعينيه فقط.

***

{امتلأت المذكرة الأولى واتخذت مخبأها في فؤاد المكان. يبدو أن المذكرة الثانية ستُغري بالبوح وبالفضح. ربما كل مرحلة لها تاريخها وتفاعلاتها. إذا انقشعت السحب التي تزين مثالية الرؤية للسماء

ستظهر حقائق الخلائق، ومنها أنا. لم أعدْ تلك العذراء في الحب ولا في الوفاء لقارورة العطر الأولى. أجدني الآن ثائرة على دواخلي اكثر}.

***

"الروهاني"

***

(...)

بقيت عيناه ثابتتان أمام الصورة. استعانتا ببريق لزج أفرزته غدد مجهولة داخل الذات. تعرقٌ دسمٌ لم يشعر بمثله من قبل. شعر بالمكان يتلبّسه ببرودته ورطوبته التي حاولت امتلاك مسام جلده، لكنه سرعان ما حاربها بزفير محموم أفرغ معه حمى اللحظة والمذكرة والفكرة والصورة والخيال وروح ماري روز.

هناك أسرار كثيرة وعجيبة تسكن هذا القبو. ربما أشياء مطمورة. لذلك، كان أول ما فكّر فيه هو جعل هذا العالم خاصّا به، لا يدخله إنس ولا حيوان، أما الجن، فإنه يسكنه ويتعايش معه.

شعر باقتراب نوبته، سارع للخروج من مسالك القبو السرية، ساعدته فتحة النور المنفلتة من صخرة في الحائط على الاهتداء لمخرجه. زحزح الصخرة المستطيلة. انتبه بحذر لامتداد خط سكة الحديد يمنة وشمالا. لا ظل ولا حركة ولا قطار. خرج واتخذ مصعد الربوة المقابلة شمالا بخطوات واسعة ككَنْغَر عابر للممرات والغابات.

حينما يُسمَع صراخه في الأنحاء تتوقف حركة الطبيعة بنباتها وحيوانها، بزواحفها وطيورها. تَخْبَر حضوره الحيوانات دون البشر. قد يضرب رأسه مع جذوع الأشجار، وقد يفلق صخرا ضربا له مع آخر فتسمع له طقطقات بهذا وذاك.

إنه (روهاني الغرب). فعلا، لقد أتى من الغرب، من سهول الغرب، لكنه عاش حياة متباينة وغريبة. عوالمه متعددة داخل ذاته. تاريخه قرون في لحظته، وشخصيات وخلائق في هيأته، أديان في وصفته وطقوسه، أشكال جنون بحكم العامة مفروضة عليه في قدره ومصيره.

ضفائر مجدولة. حاجبان كثيفان وبشرة مسحونة بلهيب الشمس وبِقَرّ فصل الشتاء كذلك، الجامد في الجبال المجاورة. وجه عريض وأنف ممتلئ يناسب عينيه الكبيرتين والساكنتين في مدارين يبصمان الزمن ليل نهار. رزمته التي تحتوي رأسماله من ألبسته وأشيائه، معلَّقةٌ فوق غصن شجرة عالٍ، يستعين بعصاه الصلبة في زحزحتها وإسقاطها بين ذراعيه.

*

(حينما تسترجع الطبيعة أصواتها)

بين الشفق والغسق، تكون حالة الارتعاش قد بلغت ذروتها في الارتجاج كما في الضمور. يقف بقامة شجرة زيتون ورأسه مخضخض في تأرجح بين معانقة السماء بعينيه المحمرّتين وخفض جبهته إشارة إلى سطح الأرض، يَحُول ذقنه الذي يلطم صدره دون سقوط عرش هذه الضفائر المجدولة فوق تاجها. يعيش رحلته الروحية والنفسية التي يحضر فيها ضيوف غرباء، لا يخبر بها سوى لسانه الناطق بها.

(روحيه)، (يوحيانو)، (روحاني)، كأنه ينطق اسمه، لكن حروفها مختلفة، حضورها دال على فرادتها كتسميات متعددة لفرد واحد. يبقى الزفير الأخير المسترسل مع تنفسه المجهد. يعانق به العتمة التي ترفق معها السكون الغريب الذي يستله الليل من حضرته وجذبته وحضوره.

دقات قلب بوقع الطبول، تتوزع معها أصوات الساقية المصطدمة مع صخرة ملساء تردد خريرا مثلما تحفر حوضها الذي يستضيف روهاني في استحمامه الأخير، كبركان رمى لظاه في منتهى عمق بحر أو محيط.

يستكين وينام كجثة هامدة في سرير الماء وجدول الساقية وشريط حياتها وسيرتها ومسارها. ينام كطفل صغير خطفته الولادة من

حياته المشيمية. إبهامه مقترب من شفته السفلى كأنها أمومية فطرية حاضرة في الحنين أو كإشارة للسكوت من كل صوت والتوقف عن كل حركة.

في عمقه يعي هذه الساقية ووادیها، من منبعها في السفوح المنبسطة والقريبة من جبال الأطلس حتى مصبها في الوادي الكبير. كم ذرعها تيمنا بالماء ورحلة استمتاع برقرقته وحيويته. يقدّسه أكثر من التراب رغم أن التراب يجذبه للحضرة وللأكل في بعض الأحيان. بينما الهواء الذي يستنشقه يأخذه في رحلة محمومة داخليا، يحوّل معها كل الخلايا والأعضاء إلى درجة انصهار مع المحيط.

ليته يستطيع تملّك كل سحر اللغات التي تسكنه. غرابتها في احتلالها لذاته وتملّكها للاشعوره ولاوعيه. تدخّلها في توازنه وذهنه وتفكيره يتخذ مساره بما لا تشتهيه ذاته غالبا. يشعر بأن هذا التركيب ساحر ويفرض عليه التعود والاعتياد والمتابعة والالتزام في الإنجاز كطقس وكسلوك. يلوذ للصمت فيجد بحر هدوئه العميق، ومنفاه ومنقذه من الغرق في بركان اللغة والوعي والتفكير.

في لحظة ما، تدمع عيناه وهو مُرَكِّزٌ بصره على خضرة أغصان أو على التماع الماء المنعكس بلون الزجاج أو السماء والأشجار، رغبة في التخلص من هذا العالم الذي يسكنه ويحتله ويخبطه في دوامات غرائبية خطيرة جل الأحيان.

تستطيع الكائنات المجاورة أن تتخذ لها حينئذ مسالكها ودروبها، مثلما تستطيع أن تجاوره في قداس الماء. قد تجرب هي الأخرى جذبته إن استطاعت إليها سبيلا، لكن الله خلّصها ونجّاها من لغة الإنسان ووعيه. مرتاحة في فطرتها ولغتها الطبيعية. هكذا أصبحت استنتاجات (روهاني) عميقة. لم يكن مثل حي بن يقظان الذي فلسفَهُ ابن طفيل. لم يكن مثل أي طفل متوحش أعادته الطبيعة إلى حضن الثقافة والتجمع البشري. كان روهاني ذلك الإنسان الذي أرادت الطبيعة أن تستردّه من تاريخ التحضُّر الإنساني وتطهّره من تلوّث الثقافة البشرية.

كم من مرة شعر بكل هذا دون أن تسعفه اللغة في التعبير عنه. لكنه مكتفٍ بالشعور لكي يمارس الحياة ويتخذ المواقف ويعدّل السلوك أو يطوّره بما يراه مناسبا، أو بما شاءه القدر له من تقلّبات . وهي الغالبة على حياة روهاني ـ

يرى بعض الحيوانات أمامه وهي تحاول أن ترقص وتجذب داخل الماء في عتمة الليل، مقلّدة له. وكأنها تحاوره وتردّد لغة روهاني. لكن روهاني لا يحرك ساكنا لمحاولاتها. يظل ساكتا ومراقبا. جامدا في تتبّعها. وحينما تتعب من محاولة محاورته تستكين هي الأخرى وترجع لطبيعة لغتها وسلوكها. على الأقل أنها حاولت استلطاف روهاني والتضامن معه في جذبته الغريبة.

كم من مرة غيّر مواقع لجوئه للماء عبر مسار هذه الساقية. حيث لا يصل خطو الأنام أبدا، أو حينما يحدث بالصدفة أن يقترب منه إنس ما.

وحيث إن اللذة في الإجهاد تصبح قداسا ممنوحا للآخر وليس للذات، فقد وقع لروهاني شيء غريبٌ عليه داخلها. كان الحادث قبل مقامات هذه الساقية، في وادٍ بعيدٍ حيث ضرورة الابتعاد عن الأنام قادته لمناطق وأنهار جديدة، في إحدى جذباته، اعتلى الماء المتطاير سقف السماء، كنافورة متراقصة مع إيقاع وضَوء، تجرّد الجسم تلقائيا من كل خرقة لباس، تعرى واختمر بالدم والماء، وبين شعاب الساقية المختلجة ارتسمت امرأة في جسدها ولم تظهر لروهاني في رؤيته إلا حين إجهاده الأخير الذي سيُصيّره طفلا محتاجا إلى حضن أمومي مرغوب ومفقود ومحروم منه في العمق.

في طلعته الأخيرة بين الماء والهواء، كأنها حالة انتشاء أو رغبة جنسية في وهجها، انتصب عضوه انتصارا لفورة الدم والتغلب على الطقس البارد للماء. خرجت من بين الخلجان امرأة بفتحة فستانها وتلابيبها، بفتحة ساقيها وإطلالة نهديها، بانسدال شعرها الأسود الملتمع انعكاسا مع الماء ونجوم السماء، أقبلت على روهاني كقربان يرتمي عشقا للموت في حضن مقدسه ونصبه، كزهرة اختارت أن تخلص البركان من حممه ولظاه، فتسقيه ما تملك من رطوبة وبرودة لكي ترميه وتطفئ عطشه وحرارته. ارتمت على جسد روهاني الذي استسلم لقدر الصدفة والدهشة والجذبة. مدّدت جسده فوق الماء واختارت الاعتلاء فوق نصبه المشتعل والمتصلب والمخترق. اختارت المبادرة والارتجاج بين الصعود والنزول. الجسد مجهد والعين صبية صغيرة ترغب في مزيد من الاشتهاء. اعتلى عواؤها كأنثى ذئب تخاطب القمر ليلة التخاطب الجنسي الفطري. سُمعت لروهاني أنّات لطيفة وصغيرة وحميمية لأول مرة. بين السرحانة والطفل كان هذا الالتقاء الغرائبي والعجيب.

جدار فاصل بين الخوف من عدمه، بين التحدي واختراق المجهول كما في الأساطير. ولأن طقسها كان بمباركة مقدسة بطلاسم فقيه وتعاويذ سحر وتسليم لأصحاب الحال من الإنس والجن، فقد صهرت كل طبقة منيعة من الخوف وكل طبول الإنذار التي قد تسبب السكتة القلبية، وغامرت مطمئنة ومستبشرة بالذي يقع وبهذا الجاذب فوق الماء كأنه مرسول لها. بينما اعتبرها هو الآخر مرسولة له. إنما لم يمتلك من الطلاسم لكي تساعده على التفسير والتبرير.

قذف بغزارة، ولم تتوقف الأنثى عن الارتجاج فوق عرش الماء. أعاد القذف الثاني، زادها ابتسامة وضحكة هستيرية مشتهية ومفترسة والعواء يتزايد في ترديد صداه. غرست أظافرها فوق ذراعيه وكتفيه. تمكنّت في قبضتها بكلتا يديها وأناملها، واستحكمت في مزيد تحقيق من الذروة والرعشة والتهيّج والتلبية القصوى للرغبة الجنسية. زاد عواؤها كأنها روح حيوان في إنسان. للمرة الثالثة المجهدة والكبيرة، تعرّقت وتصببت داخل الماء. فرحت لهذا الانتصار على قانون الطبيعة، ولخرق منطقها بتناقضات النتيجة التي حققتها الرغبة.

تركتْه مجهدا ومستلقيا فوق جدول الساقية المنحرفة عن مجرى النهر الكبير، توارت رويدا رويدا، دون أن تمنع بصرها من رؤيته. كأنها تودّعه لمثواه الأخير أو كأنه لن يراها ربما بعدَ هذه المغامرة. لم تكن هناك لغة كلام ولا كلمات معبرة بدلالات الألفاظ. كانت الأصوات حاضرة، لكن الحركات والأفعال كانت أكثر تعبيرا وأقوى دلالة. وكأنها ابتلعتها الأجمة في عتمة الليل وسدفته، غابت مع الحكايات لكي تصبح سيرة غامضة ومبهمة لتجربة ومغامرة عجيبة.

كأنه جان، كأنه ملاك، كأنه ولي طاهر بعثه الله لها. كأنه الماء الذي رواها في الساقية وجعلها تخصب وتلد.

اندمج الحكي داخل الشعبي من الروايات وتضمنته الأغنيات في أشكال الإنشاد. كان الترميز ب(البوهالي) وب(الماء) عوض الحديث عن روهاني. وكأن روهاني ماء في ماء أو مجرد ماء، أو هو ولي صالح يجعل الدواء والعلاج للعقم ويشفي من الأمراض.

أصبح الناس يبحثون عنه رجاء في الشفاء، وأصبح روهاني يفر منهم قدر الإمكان بحثا عن خلواته وممارسةً لحياته الطبيعية ما أمكن. لكن الغريب أن مصدر الروايات منعدم المصادر، رغم تعددها. والغريب أن هذا الخارق المخترق مجهول الهوية رغم تشابه المواصفات. كان حدسه هو المبعِد له عن كل اشتباه أو تلبيس. وكان سرّ تلك السرحانة في ما لمسته احتكاكا مغيَّبا في اللاشعور وفي رقصة الماء والظلمة، في الأصبع السادس الذي ينفلت خلقة هكذا دون أن يكون عندها تفسير له.

وتبقى الحيوانات خير مجاور له بعد ما حدث وبعد كل الذي حدث. تراقب في صمت دون أن تستفز أو تعرقل طقسه. وفي تجربته الأخيرة مع نوبته تلقى رسالته الغريبة. لابد من العودة لقبو الفيلا والبحث عن أسرار المكان وأرواحه.

تبقى الطريق طويلة، لكنها لا تقاس إلا بمجهود اليوم وحركته. لا تقاس إلا بما رسمه ذهنه من فكرة وهدف ومكان. وكأن المسافات قصيرة رغم طولها وتباعد مواقع انطلاقها. بين مجرى وادي سبو،

الذي قاده قدر مجهول ما إليه سبّبه تزاحم دوائر الأمكنة بالبشر، ومكناس التي يمتلك فيها كمدينة قبوا يحمل أسرارا ويعده بمفاجآت، كم هي الطريق في مسافتها طويلة، لكنها قصيرة في عُرْف الروهاني المتعدد الألقاب.

*

* الغيرة، جمرة تأتي على أعطاب الروح

فتصير حطبا لاحتفالية النار*

يوم كتبت ماري روز مذكراتها كانت تنوي جمعها لطبعها في كتاب. كانت في الآن نفسه تحارب الفراغ والعدم اللذين أصبحت روحها تشعر بهما. ضياع أنثى في قارة بعيدة. حلم القارة السمراء، مثله مثل حلم جزر الأحلام في موريس أو الأنتيل أو غيرها من امتدادات المستعمرات الفرنسية المنتشرة عبر خريطة وبحار هذا العالم، لم تلمس منه أو فيه أية جنة من الجنات.

كانت تنتظر عودتها وخلاصها من تجربة العيش في المغرب وفي أفريقيا، وكأنها تستشعر نهاية مرحلة تاريخية لتواجدها في هذا البلد.

تشعر باغترابها داخل دائرة ضيقة. بالكاد تمارس حرياتها وسط عوالم غريبةٍ تجهل أي تقاطع معها. فقط ما تتقاسمه لغتها الفرنسية في الوظيفة أو في السهرات أو في أنشطة المقتصدية أو قاعات سينما كاميرا وأومبّير و(ABC) أو قاعة المسرح الكبير الذي سيصبح قاعة سينما الريجون فيما بعد.

حتى الصداقة التي عمّقتها مع الرسام الشهير ويليام، أخذت مسارا وتّر من العلاقة بينها وبين بيير زوجها الرسمي. حاولت ترميم جسدها الذي شعرت بترهّله وتهدله. بينما كانت روحها هي التي تذبل في انقشاع سحب الأحلام وعدم بقاء بصيص أمل في تحققها. مرض العصر. هكذا كانت تفسر رفقة ويليام ما يقع لها. كانا يجعلان من المرسم منطلقا لتحليلاتهما الفلسفية الوجودية والمواكبة للمد الثقافي الباريسي على الخصوص. رغم أن اهتمامات الرسام ويليام كانت تميل للألوان وتتبع الجديد الذي ستضيفه لمدرسة الرسم الفرنسية والأوربية. يفتخر بكونه يسير على خطى أوجين دولاكروا الشهير في بدايات القرن التاسع عشر وملهم الرسامين والفنانين والجغرافيين. كانت لوحاته بوابة الأحلام لكل استكشاف واقتحام. ألوانه الجديدة التي استقاها من روح المغرب وجمال طبيعته وثقافته هي التي جعلت ويليام يستقر بالمغرب لمدة سنوات. هكذا فسّر الأمر لماري روز. هكذا رسم لها لوحات عدة تحت الطلب. كانت في البداية بالأداء، لكن بعدها وبعدما توطدت العلاقة الخاصة بينهما، أصبح جسد ماري روز ملهما ومعبرا ينوب عن نفسية الرسام في ترجمة أحوالها ورغباتها.

سينغرس الجرح في فؤاد بيير. ومثلما يسكنه الحب في أعماقه، فسيفكر في تطهيره كأنه يطهر روحه. لكنه لا يستطيع التخلص منه، لأنه جزء من كيانه. ربما التخلص المادي ممكن. هكذا كبُر الاحتمال في اكتساب منطق وشرعية تحققه. أصبحت هندسة الفيلا منعكسة على رؤيته لشخصية زوجه ماري روز ولعلاقته معها. ظاهر وباطن خفي لا يعلم بحدسه مصيرَه إلا هو. أي قرار وأي خلاص ؟

يجلس بيير في شرفته محتسيا كأسه الليلي. يسود الفيلا صمت رهيب في غياب ماري روز. يتمنى فقط رؤية طلعتها وهي آتية من قاعة المسرح. قد يشعر بأن حضور عرض ما مجرد مبرر لخلوة ما. لكنه لم يجرؤ على كسر مرآة الحب البلورية التي تلتقي فيها عيونهما. لذلك، تعايش مع الجرح حتى أصبح ملازما ضروريا لغيرته ومزيد شوقه وتعلقه بمن يحب. وكأنها فنانة معشوقة الجماهير، سيجعل من ذاته المحبة أحد هؤلاء العشاق. سيحاول استكشاف جزيرة كنز هذا الجمال، علّه يفلح في استعادة وهج تعلقها به وإبعادها عن هذا الانحراف في الوفاء الذي اعتبره نزوة، خاصة وأنه هو الآخر له نزواته. لذلك كان الشعور بالعدالة وهي تتحقق في وخز الضمير وفي ضمد جراح الفؤاد وعِلل الروح.

كيف الخلود في الحب ونحن في بُعد عن الوطن الأم؟

سؤاله الذي ينعكس مع كأسه المازج بين حمرة خمر وصفرة مصباح متدلٍّ من إفريز الشرفة. وحيث قوس الاستفهام هو القائم فإن قوس النصر في الغرام يبدو مستحيل الاكتمال من دون المطلق الذي يشبع الفؤاد والروح معا. تُرى، كيف سيكون تحقيق هذا المطلق؟ مجرد سؤال يتردد متثاقلا على لسانه لحظات الثمالة والغرق في سكر مرغوب يخمد بركانا مشتعلا يودّ الانفجار. ساعة المطلق لابد أن تحين.

*

{كانت باريس جنتي الحقيقية. لم يفرقني عنها سوى زحف النازية. كسرطان يقتل الخلايا تباعا. لن يفرقني عنها إذا ما عاودت الحياة بها سوى الموت. ستموت جنتي حينذاك. أجمل شيء في جنة باريس هو ذاك العطش المتجدد كالسراب، رغم ماديته، والذي يحمل الأنام لتناول كأس وعب جرعة شامبانيا أو نبيذ معتق أو جعة. هو ذاك الارتعاش الذي يخترق الجسد فيدعوه للرقص ثم الرقص فالرقص مع الموسيقى الساحرة التي أعتبرها صوت الملائكة وإيقاعها وطربها. أكيد أن الملائكة تغار من جنتنا فتخترق سحرنا وتعيش طقوسه.

باريس جنتي التي لا نار ولا جهنم تقابلها إلا ما ابتعد منها وأبعدني عنها. كلما مارست علاقة جنسية جديدة وبتجربة جديدة كنتُ أشعر بتجدد الحياة وبإضافة طعم جديد لها واستحقاق يجعلها محترمة. كنت أنتشي وأفتخر للعلاقة القادمة بآخر ما عشته في العلاقة السابقة. قبل أن ننزع ثيابنا أو نتنازعها، كنا نسرد آخر علاقة جنسية قمنا بها. نحاول ذكر التفاصيل، ولو كانت مملة، ندقق في وصفها وشعورها ونتائجها. يختلط الكلام مع الجرعات ومع دخان سجائرنا، فتكون المعركة وقد تأجّج الاستعداد لها لكي تبدأ متوهجة ومشتعلة

وحامية، حطبُها غيرة متبادلة. نجرب القبلة الجديدة، والممارسة الفريدة. وكانت أجسادنا تتخذ لغتها المناسبة.

كان العطر عتاد تخلّصنا من ذكريات معارك قديمة. أختار الجديد الجميل منه لكل فصل وكل شخص وكل عناق، وأجعل للآخر مصيرا محتوما داخله. قد يوفّق في لباسه وابتسامته، لكنه لابد له أن يوفّق في نوع العطر الذي سيجلبني إليه في عرائي إلا من لباس جسدي المحتشم من كل رائحة غريبة عني تنفرها حواسي وطباعي وجنوني}.

{غريب أمر النباتات التي يتركَّب منها كل عطر. حينما أستقصي عنها وعن أسمائها التي قد لا أتعرّف إلا على بعضها يمتلكني سحر العالم وسحر قارات وأماكنه الجغرافية البعيدة. أكون تلك السفينة الأسطورية وتكون روحي ذلك البراق الذي سمعتُ عنه في حكايات المسلمين. أطير بأجنحته حلما وتخيُّلا. أستلهمُه في كل عملية شم فلا أستبين ولا أميّز. أبقى مستسلمة لألفاظه المسموعة: أشجار الحمضيات، اللوز المر، الغار، الريحان، الكافور، الآس...}.

{ما أقرأه من أدب الصحراء، ما استطعت الاطلاع عليه من آداب المغرب وإفريقيا وحضارة الشرق الممتدةِ شمسُها إلى شواطئ المحيط الأطلسي يقربني أكثر من صورتها وتشبيهها. قد يكون عطشي هو ظمأ هذه الصحراء التي تقذف بضحيتها في اتباع سراب ما. حتى إذا ما وجد واحة أو بئرا أو ماء نادرا وغاليا، كانت جنته في ذلك البلل الأول، في فتحة المسام التي تحقق الجاذبية بين الكائنات والماء. ولمَ لا يكون إلها، هذا الماء؟}

{أقف أمام مرور راهبات في لباس وقارهن، في طهارتهن الأكيدة، وابتسامتهن البتولة، أضحك من نفسي كيف أنها لا تصدق المضمر في رسالتهن. قد تنشرن الشفقة والعطف والمساعدة، لكنهن تجترفن الإنسان عن الحياة الحقيقية إلى وعد غائب وبعيد. أسخر من نفسي التي لا تجد تقاطعا مع رسالتهن أو مع رسالة الشرق التي تعد مع كل أذان صوامعه بالجنة. وتبقى السماء زرقاء صافية، حتى إذا ما عتمتها الغيوم واعتصرت أمطارها وجدت الأقدام في أوحال السيول. من هنا تبدأ جنتي، من هذا الطمي وهذا التراب}.

{قد أحتاج للخروج إلى ضيعات العنب، أحتاج إلى الالتحاف بأوراق الكرم ورائحته. أن أقبض على حفنة تراب، أقربها إلى أنفي، آخذ نفَسا عميقا، أشم رائحة هذا التراب فتحلو لي كافة الروائح التي ينتجها. أعود إلى قبو الفيلا مسرعة، أول قنينة نبيذ تلتقطها عيناي تكون ضيفة على شرفتي وجلستي. بعد الكأس الثانية أستضيف ملائكة السماء في عزفي على البيان. أراها في القوس المتاح داخل إطار باب الشرفة فراشاتٍ، وما هي إلا زهرات قلبي التي ترفرف سعادة مع الطقس الذي تعوّدتُه.

يتأخر بيّير في الظهور. إما أنه في جلسة لعب ورق واحتساء شراب أو أنه في لعبة الظهور والاختفاء داخل القبو، حيث ينزل الدرج فلا يظهر له أثر بعدها إلا بعد ساعات. يوتّرني هذا المجهول الجديد فأضطر لمزيد تناول كؤوس إلى درجة الثمالة والجنون. هكذا يكون جنوني تمردا على رتابة مفاجئة أشعر بها. أنطلق برغباتي كمسعورة هائجة. وتبدأ الحماقات التي أتنكّر لها صباحا. ***هي المذكرات لعنة الأسرار النائمة***}.

{خلال هذه الليالي تصبح مدينة مكناس فعلا باريس الصغرى في روحي وقلبي ومشاعري. أستبيح لحظتها كل شيء بما فيه بيير طبعا زوجي الوفي والعزيز.

ما الذي يجعل الخمر قداسا ننشد به السماء؟ كتب الأنثروبولوجيا التي اطلعت عليها جعلت الدم الأحمر المهرق قربانا للآلهة الأرضية والسماوية. في ضواحي مدينة مكناس، ب(بودربالة) أو صاحب اللباس الممزق والمهمل كما هو معناه، وبجانب ضيعة لمُعمّر فرنسي من الجنوب الفرنسي، حضرت طقسا غريبا يقوم به السكان الأصليون. يختارون ثورا أسود اللون. يقدمونه لولي مقدس عندهم فيذبحونه ويوزعون لحمه على الساكنة لكي يقوموا بطهيه والتصدق به كوجبات للكسكس. يحضر الدم كما تحضر حبوب الزرع ممثلة في هذا الكسكس الشهي.

رأيت يومها بعض النسوة تتقدمن لملء أوعيةٍ بدم الثور المذبوح من الوريد إلى الوريد، رأيتهن يشربن منه ساخنا أو يمسحن به جباههن وأعناقهن. إحداهن هرولت بِمَمْلوئها آخذة له لوجهة معينة وطقس معين. لم أستبن ولم أفهم إلى أين أخذته.

الْتَمَعَ في عينيّ اللون الأحمر. انعكس أحمر الخمر مع أحمر الدم. حدستُ أن طقوس القرابين حاضرة رمزيا في هذا الذي يمارسه الكهنة كذلك والرهبان. حتى ذلك الديك الذي نحتفل به ليلة رأس السنة يشكل قربانا. لمست أن الكنيسة استطاعت أن تجعل الطقس شكليا وناعما ورمزيا. أن تحوّله في الوظيفة والأسلوب. لكنه يبقى طقسا قربانيا وأضحية مقدمة لأبواب السماء.

لمست فعلا أن الخوف والنقص والحرمان عوامل تؤدي للتقرب من السماء وطلب العون والشفاء والسقاية والحماية.

حتى الكتاب المقدس جعل قبول القربان من صاحب القطيع على حساب صاحب *السنابل:*

"وحدث بعد أيام أن قايين• قدم من أثمار الأرض قربانًا للرب، وقدم هابيل أيضًا من أبكار غنمه من سمانها، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر، فاغتاظ قايين جدًا وسقط وجهه".

ما سرّ هذا الأحمر المهرق؟ وهذا الأحمر المعتق الذي وجدته يجري في دمي وعروقي. أي جريان يربطنا كحركة ولون؟ ألا يعتصر هذا الأحمر المعتق رحيق النبات والفاكهة لكي يرقى للسائل الحي؟ لماذا الحياة مقابل حياة؟

أجدني مضطرة في لحظات للنزول إلى القبو والجلوس داخل رطوبته. قد أنصهر مع قلب الأرض وأرتاح في أعماقها. قد أنتظر لأكتشف صدفة لعبة بيير فيه. قد أنام جالسة فوق كرسي متدلية الأطراف. يستكين العقل مع الروح داخل هذه الثمالة فيشكلان حكمة للنوم. أما السطح، فهو حماقات مقنعة لفَظَتْنِي بعد الانتهاء من كل اشتهاء وكل تلبية رغبة ونشوة وانتشاء}.

{حكايتي مع العطور، حكاية الطيور مع الفواكه وأغصان الأشجار وسيقان الأزهار في فصل ربيع. والعطر ربيع كل أنثى تزهو وتبتهج

• ـ الحديث طبعا عن قصة قابيل وهابيل كما نلفظ التسميتين باللغة العربية والإسلامية.

به. إكسير بدنها وشهقة روحها التي تكسبها الخلود، أو هكذا هي أنا ماري روز أو روز ماري، بما يشتهيني به الطلب والنداء والرغبة والعشق لأناي.

أشهد أن العطر الجديد (L'air du temps) الذي أهدانيه عاشقي الرسام الشهير ويليام، قد أحدث ثورة في كياني. كنّا رمز اليمام في سدادته، متعانقين مشرئبين لفتحة قنينته الملتوية شكلا ولونا، والمخبئة لسحر الزهور والورد ورحيق المسافات البعيدة. لم أتخلّ عن عطوري السابقة. لكنه كان حصانيَ المفضّل في سباق المسافات المختارة والطويلة مع الفارس الجديد والغامض، هذا الرسام الذي ابتلع العالم والروح داخل لوحاته، لوحاتي.

ربما كل عطر يسجل تاريخ مرحلة، وهذه كانت بعد سابقاتها بالثورة التي أحدثها روبير ريكسي في دار ناني ريكسي للعطور في جديد الرائحة ونعيم عناقها داخليا وخارجيا. وحتى يبقى التوازن بين المعارك، كان لكل واحدة عطرها المنتقى تحقيقا للعدل الخارجي، أما الداخلي فهو منآيَ ومنفاي ومبعدي الأخير الذي أتركه يحدد حكمه الأخير. ربما لا نتوافق في نهاية المعركة، لكننا نتفق على تجديدها بالأفضل مما نكتسبه}.

{ ويبقى العطر الجديد مفتاح اللوحات والمغامرات الجديدة. اتفقنا على جعل ثلاث مراحل في التشكيل بين الرسم والرقص والعري الذي يصاحب الثمالة المشتهاة. داخل التركيب الهرمي للعطور كانت القاعدة ثم القلب فالرأس الذي يحقق القمة. لغة في درجة الغموض الذي يخفيه تركيب كل عطر طبعا. سيختار ويليام مغامرة اللوحة الجديدة. سيكون l'air du temps المصاحب للجسد في

لباسه التمهيدي والمنتقى بحسب الفصل وبحسب الطقس. جسد مستحم بعطر مجنون ينطلق حكمة فينتهي تيها متصببا عرقا. وستكون رقصة القلب والفؤاد ممثلة في المشاعر المعبّر عنها، ما يؤسس لعلاقتنا من شرعية مشاعر نحتاجها جرعات للمرحلة وللعلاقة. ولا يكون رأس الهرم سوى تجسيدا خارجيا لهذه الأسس وهذه الطبقات. كما العطر فإن كل علاقة جنسية تسترق من أول رائحته ما تشاء في البداية لكي تبصم بالأخرى التي تدوم وتبقى والتي يمتزج بها الجسدان المختلجان تبللا ورقصا وعريا هائجا. وما تعبيري سوى درجات جنون يرشها ويليام على بياضٍ عذري وثوبٍ ورقي جديد.}.

جون الصغير Petit Jean

*

(جون الصغير)، تلك التسمية التي تلقاها منذ صغره.

يوم تركتْه أمه رضيعا داخل قماطه على مشارف بوابة منطقة (جون الصغير Petit Jean). هذه التسمية التي سجلت تاريخ بوابة الغرب وسهوله المنحدرة من سفوح جبال زرهون وسلسلة جبال الريف والمنبسطة فوق منطقة أزغار .

(بّوتي جون) التي تحوّلت في العامية المغربية إلى (بيتيجا)، تسهيلا لنطقها بما تدل عليه أو بما تؤديه كوظيفة. وما تدل عليه سوى تاريخ معمّرٍ واستعمار. لكن، ماذا سيكون للروهاني من علاقة مع التسمية ؟

تتموضع المدينة بالقرب من نهر الردوم الذي ينفلت باحثا له عن مصبّ لجريانه من هضبة مكناس ليجد التربة الخصبة ويشارك في خلق حياة للطبيعة والأنام والخلائق.

لقد كان جون الصغير قبطانا فرنسيا عيّنه الكولونيل (كُورو) وجعل تسمية (بّوتي جون) للدائرة والجماعة التي يسيرها، غير بعيد عن عين الحمراء حيث المستعمرة الزراعية والتجارية والصناعية ثم النفطية فيما بعد، ابتداء من سنة 1923.

رافقت حمولة هذا الاسم نفسية وشخصية الروهاني. هذا الرضيع الذي تكفّلت به رهيبات من المنطقة السهلية في تربيته ورعايته. يوم وجدْنَه هناك، كان جسده مثلجا من برد ليلة شهر نونبر جعلت صفحة وجهه زرقاء.

تكفّلت تغذيته الداخلية بمساعدته في البقاء على قيد الحياة. ظَنَنَّه ميتا لجموده من كل حركة، لكن خضخضة وفركا وأصواتا نسوية حنينية، شافعة لحاله ووضعه، كل هذا جعل حياةً ودورة دموية جديدة وصراخا تَقَبّل مرافعة الرهيبات الإنسانية. وفجأة صرخ وفتح عينيه مع تفتح الأمل طمعا في إنقاذ جديد داخل هذا العالم الخارجي والغريب عن هناء حياة الرحم السابقة. إنقاذ من كل تهديد ومن كل ألم أو وجع أو صعقات بيئة الحياة.

كانت الأخت (مادلين بوفير) مفتخرة باسمها الثنائي الذي يخلد لأسرتها التي وهبت جل إناثها لخدمة الكنيسة. كانت هي المتقدمة والمقترحة للاسم. بادرت بسرعة استغربت لها الأخريات لكي تقترح حضانته وتربيته، ليكون المسيح الذي سيخدم الرب ويكون ظله المتجسد فوق الأرض. استطاعت بعينيها الحجليتين أن تلفت انتباهه الجاهل للعالم الخارجي ولما يقع فيه. ربط بينهما قبس نور

وخيط رفيع داخله. ما جعل طلبها محصنا بهذا الارتباط المفاجئ الجديد بينهما.

بدأت معاناته منذ صغره مع نوبات صرع غريب. كانت الفرصة مناسبة للأخوات لكي تمارسن طقوس العلاج الكنسي بشتى تنوعاته الرسمية والشعائرية أو الشعوذية. لم يزد الأمر إلا تعقيدا، خصوصا مع نموه السريع وكبره. ما لم تعْلمه الأخوات وعلِمه القدر واختاره طريقا له، كانت أمه الطبيعية والبيولوجية حين وضعته أمام بوابة بّوتي جون، وقد قطعت المسافة الطويلة بحثا لها عن مخرج لمأزقها، هي العالمة بحاله ووقعه.

...

لن يتقبل مجتمعُها المسلم فضيحتها. أرادت لحظة إنجابها لطفلها بمعجزة وقوة الهنود الحمر في خلوة المرأة الحامل في خلاء أو مغارة لكي تضع جنينها بمفردها، أن تجعل له حياة وقوة وشرعية وجود. رفضت الاقتراحات التي جاءتها من دوائر الأسرار. لن تخنقه، لن ترميه في بئر. لم يكن يوسف الذي سينقذه الرب بمعجزاته. لكنها لم تعلم أن معجزة الإنقاذ جاءت بيد وعن طريق رهيبات ستتكفلن بتربيته ورعايته.

استشعرت الأم أن رسالتها قد اقتربت من دنوّها وأن مهمتها قد انتهت. وهبته للرب وللسماء وانسحبت بجمر دموعها الذي يكوي قلبها ويحرق فؤادها. لقد أراده القدر. لن تكون الوحيدة، ستكون الأم الألف أو المليون التي أنجبت خارج إطار زواج شرعي. ستهبُه

للقدر وترمي نفسها وجسدها للجحيم. لن تعود إلى مدشرها وأهلها. ستخترق المدينة القريبة وتبيع ذاتها للشيطان الذي يسكنها. لا تملك سوى الاحتراق حتى تخمد هذه الروح رمادا هامدا بدون نبض ولا حركة.

سمعت الأم عن المسيح داخل قريتها وحكاياته القرآنية. سمعت كذلك عن موسى ومشيئة المهد فوق النيل وعن الرسالة التي جعلته يتربى داخل الأسرة الحاكمة. سيدنا يوسف هو الآخر، كان حاضرا في حكيها وكيف ألقي في البئر... لكن تخوفاتها جعلتها تشهق بصهيلٍ يخترق جذوع الأشجار فيفلق فروعها كبرق صاعق. قد تدري في لا شعورها أن زمن النبوات قد انتهى. لا تحتاج إلى لغة معبّرة. استنتاجات وعذابات صماء وصدمات عمياء تتلقاها.

تتعب في الخطو على ضفاف (وادي عين الحمرا)، تستريح، تُقبّله بما أوتيت من شفتي حنان ودفء وعطف. تدنو منه قاب ثدي، تمده برضاعة جديدة، تؤذّن في أذنه اليمنى بما أوتيت من علم وخبر شفهيين، عن ضرورة الأذان للمولود الصغير والجديد.

ذلك الصوت المبحوح، الشاهق، الجريح بالأذان، هو ما سجّله الروهاني كأول تلقٍّ، أول درس يفرقه عن حضانة امٍّ إلى قدر جديد.

قدرٌ سيجعل الصرع بصوت الأم وصوت أذان متقطع غير مكتمل حين اشتداد النوبات عليه. قدرٌ ستفسره أخوات الكنيسة بأنه صوت شيطان يسكنه. سيدعوهن إلى التسلح بما أوتين من خبرة واستشارات وتعاويذ وأيقونات المسيح المصلوب أو مريم العذراء،

كل ذلك من أجل محاربة هذا الشيطان الذي امتلك روح جون الصغير أو بّوتي جون.

تَعَلَّمَ اللغة الفرنسية ومعها أساسيات لغة الأناشيد ومقاطع العهد القديم والعهد الجديد وبعض الابتهالات الكنسية. في رفقة أربعتهن كان جون الصغير هو المشخَّص، وكُنّ فريق المتابعة والعلاج والتربية والتكوين. اشتد عوده، لكنه في الوقت نفسه، اشتدت نوباته وأصبحت خطيرة. لم تعد تستطعن الإمساك بأطرافه حين انفعال خلاياه وأصواته الغريبة. زادته تجارب ربط هذه الأطراف بحبال أو أصفاد من الحديد والجلد استعرنها لهذه المهمة. وكأنه المسيح المصلوب. وكأنه المسكون بروح جنّ قوي لابد من تخليص جسده منه. عملية احتلال لابد من تحرير وخلاص منها.

راقب بعض آباء الكنيسة، الذين زاروا الأخوات، حالته. تعوّذوا بطلسمات، وبعضها غريب في مثل هذه الوضعية لكون المقدس لا يزيد توافقا مع غرابته إلا بنقيضه المدنس. وكان جسد (جون الصغير) مدنسا حين اشتداد حالة الصرع وتصببه عرقا وتصلب عضلاته وتغيّر صوته ولغته.

.إن أكبر امتحان لكنيستنا هو هذا التخليص لهذا الطفل من امتلاك الشيطان وقوى الشر لجسده. الحمد لله الذي جعله بين أيدي الأخوات، وإلا فإن غير المؤمنين سيجعلونه بتفسيراتهم الملحدة التي يستوطن معها الشيطان أرواح الجميع. نعوذ بالأب والابن والروح القدس من كل هذا. آمين !

تردد الأخوات وبعض خدام الكنيسة الحاضرين الابتهال و آمين.

في كل مرة، قد يأكل التراب المبلل معها، أو المواد غير الطازجة أو غير المطبوخة، تثور ثائرة إحداهن ويزداد خفقان نبضهن. يشعرن بأن توازنهن مهزوز وضعيف. هذا القلب الذي يفزع يجعلهن تتعرقن وتعشن كوابيس أو تجارب محرمة على مثيلاتهن. وكأن الشيطان وجد منفذا لمؤسستهن وكيانهن.

تحكي الأخت (تيريز) كيف تعرقت وكيف ضمّها مجهول ومارس عليها الجنس، وهي ترفض وتقاوم من أجل التخلص منه. كيف جعلها غارقة في مائه وبرائحته النتنة. تراقب كبيرتهن أعين المستمعات وتدعوهن إلى إيقاف هذا الكلام وهذا الحوار. تطلب من تيريز الذهاب إلى غرفة الاعتراف للتخلص من ذنب هذا الكابوس. تلاحظ بقاء الفضول لامعا في أعين الأخريات، تنهرهن وتطلب منهن الاهتمام بواجباتهن الصباحية. يعلو صوت الاستغفار ويفرنقع الجمع لمغامرة غريبة أثارت فضولا بقي مدفونا في فؤادهن. بين الخوف والرغبة همست إحداهن لأخت مقربة منها:

.أخاف أن يزور إحدانا نحن الأخريات !

قصة الخير مع الشر، الله مع الشيطان، تاريخ من محاولات الاختراق وهدم الكنيسة. ألم يكن مجيء المسيح بالأساس من أجل هدم نفوذ الشيطان والشر كما في كتاب لوقا ؟ ! تساءلن، هل يكون هذا الولد ابنا بعثه الشيطان في صورة إنسان. كانت اللحظة حاسمة وخطيرة. كيف لطفل وديع وأنيق وطيّع أن يتحوّل بشكل مفاجئ

إلى ضحية انفعال أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه بالوحشي والمرَضي. كيف تستطعن إنقاذه في مرحلة طفولته قبل أن يصبح مسؤولا على أفعاله وقبل أن تتحول هذه إلى ذنوب ومعاصٍ؟

في نوبة شديدة، امتدت يد (جون الصغير)، والذي أصبح عمره ثلاث عشرة سنة، إلى عنق (مادلين بوافير). في مرات سابقة، كانت ثيابهن قد تخضع لتمزق ما، وربما بدت إحدى خصلات شعرهن أو فتحة نهودهن وحلماتها. هذه المرة امتدت اليد مباشرة إلى عنقٍ استحكمت الأناملُ قبضتهَا على مداره الهش. خنقها تصلبا وتمنعا بقوة خارقة لم تستطعن معها نزع يديه من استدارة إمساكها. أغمي على مادلين بوافير فيما استعاد الطفل وعيه، وجد ثلاثتهن حولها مفزعات، باحثات عن سبل لإنقاذها. دقت طبول المصيبة في دواخله. علم بأنه السبب وأن ما قام به لا يغتفر. اتخذ لقدره مسار الهروب والفرار، وكأن قدر الهروب الذي جرف أمه بالولادة شاء له أن يجرفه هو الآخر ملعونا من طرف الكنيسة التي احتضنته وربّته. الأم كذلك ستلعنها أسرتها إذا ما كانت قد علمت بكل ما اقترفته وما أنتجته وصارت إليه في جحيم مواخير المدن التي لجأت إلى حممها.

لن يعود إلى مقامهن ولا إلى أية كنيسة ستحاكمه وتحاسبه على ما فعل. أقل شيء فيه هو أن تقوم بصلبه أو ترميه في قبو في إحدى مؤسساتها. والقبو درجات جحيم وبداية عذاب في الدنيا قبل الآخرة. كيف لا ونصوص الوعيد تمتلك كيانه ترتيلا وخشوعا. وحتى خطابات تربيته انبنت على وعد ووعيد، وكان الوعيد مليئا بعوالم التعذيب ومخاوفه المرعبة.

ربما ماتت مادلين في غيبوبتها وأزمتها القلبية التي كانت لها بوادر سابقة. أصبح جون الصغير ابن البراري والقفار. اتخذ مسالك الجبال والتلال البعيدة والممتدة في أفق النظر. وراء المدينة هناك جبال. ستكون حاضنته الجديدة. سيكون ابن الطبيعة لأنه لا يملك لغة العالم الخارجي الذي ارتمى في أحضانه. قدره هذا الفرار وهذه الحياة الجديدة.

(*مولْ ألْمَا*)!

*

(مول الما)، أو (سيدي بوزبطة•). احتار الناس في اختيار التسمية. قد يخجل البعض من ذكر كلمة (بوزبطة)، رغم أنها دالة على غيب عِلْمِهم، الذي لا يعرفونه، على رقصة العري التي اجترح بها مشهد الإخصاب في دجى ليلة وشعابها والتي اختارت ساقية منعرجة قرب الوادي، ولأن مدلولها واضح في معنى الجسد العاري إلا من جلده الذي يشكّل كيانه.

اختبر الناس روايات (الميلودية). اندهشوا لانعدام الأثر. لا دليل مادي يعكس أية رواية، سوى (مول الما). والماء يغسل ما قبله ليجعله طاهرا لما بعده. ينتقل بصاحبه من المدنس إلى المقدس.

• ـ تعني الكلمة (بوزبطة) في الدارجة المغربية صاحب الجسد العريان. وتعني كلمة (زبط) العريان بدون لباس.

كذلك حال الميلودية التي اعتمرت فوق رأسها وشاحا مزركش الألوان، يغلب عليه الأحمر والأصفر. جعلته رباطا على جبهتها كذلك. اختارت الحناء بشكل مستمر في يديها وقدميها. أكثرت من زيارة الأضرحة والأولياء. زادت من القرابين وأضافت الروايات على أخرى.

كل مرة يكون الحلم هو مفتاح الرؤيا والتنفيذ والتسليم لأصحاب الحال. تأتيها نوبات تعرق وهذيان، كلام ورعشة تذهب بها في غيبوبة. يحضرها (مول الما)، في رقصته المائية، في طلبها، فتهيج وتتصبّب، تشعر بقشيبه وبقبقته فتحس بامتلاكه لكيانها... لا يدري محيطها أنها قد حققت نشوة إيروسية مرافقة، لا تدري كيفية التخلص منها. انتقلت بها من النوم إلى اليقظة. خافت من امتلاك روح هذا الغريب لروحها. خافت من فلتات لسانها التي قد تفضحها بدون أن تشعر.

هكذا تركّبت الروايات، وكانت مغلوبة على أمرها عند محيطها وسامعيها: (المسكينة، مسكونة بروح جني أو ولي. كان الله في عونها). هكذا، ساعدها الجل في البحث عن الحلول. كانت زيارة المواسم القريبة والبعيدة. كان البحث عن منابع ماء مقدسة. ماء أقوى وأطهر من هذا الذي تطهّرت به في حضرة (مول الما). وكانت القرابين لأقوى الأولياء، عساهم يساعدونها على التخلص من الروح الشريرة التي تسكنها. لكن الميلودية لم تكن لتشكل خطرا على أهلها أو محيطها. كانت بركة رأيها ومساعداتها وبداهة عقلها بارزة كأمور تجعل الكل يحترمها. وسيكتمل هذا الاحترام عندما ستزور الديار المقدسة وتصبح حاجة، فتلقّب بالحاجّة الميلودية.

(سلكتُ الدرب الضيق المؤدي إلى شعاب الساقية. كانت (فاطنة) حماتي وأخت زوجي تنتظرني على جانب الطريق البري المؤدي لها. كنت أحمل صُرّةً وكان عليّ أن أدفنها بعمق شبر وأربع أصابع، بشكل عمودي وليس بقياس امتداد القبر. أدفن الشؤم وأترك للنهر أن يتكلف بإتلافه حتى لا تستحوذ عليه أرواح أخرى فتتلاعب به. هكذا وجّهني الفقيه إلى طريقة الدفن وإلى التعويذة التي سأقولها، وإلى عدد البصقات والتُّفل الذي سأنثره مع مجرى الماء.

انتهيت من الدفن وبقيت في ترديد التعويذة التي استعصت على التذكر. تأخرت في العملية، فأكثرت من الاستغفار والعياذ بالله من الشيطان الرجيم. انقبض قلبي وضاق تنفسي. سمعت رجة وغمغمة، نظرت بين أوراق الدفلى برائحتها الفائحة، رأيت الماء يصّاعد كنافورة وكنبع من الأرض من وسط البركة التي شكّلتها الساقية في هذا المنعرج. تذكرت البصق في الماء والتعويذة. رحت أخطو فوق الضفاف. جلبني الماء كأخطبوط مدَّ أذرعه، أو كحرباء مدت لسانها. انخرطت في رقصة الماء دون أن أشعر. رددت مترجية أو خائفة، لا أدري فقد اختلطت عليّ المشاعر في تلك اللحظة، (واهيا مول الما). عاودت وعاودت حتى خمد الماء في النهاية، حتى هُدّت أنفاسي، حينها عدت مهرولة من الرعب ومن الغرابة ومن الطقس الذي غامرتُ فيه، مبتلّة ومجهدة. أتى الفرج. وما الفرج سوى ببركة الله تعالى.

أصاب الفقيه الرعب والاستغراب لِما سمع. حينما عاودنا الزيارة للمكان بعد مدة، وقد كان التوقيت نهارا، لاحظنا معسكرا من الخيام المتفرقة. لاحظت خيمة الفقيه وقد اتخذ مجلسه وسط

الدائرة وداخلها. لقد التقطت آذان الناس الحدث والحكاية، وهرولت أرجلهم طلبا للبركة، لبركة (مول الما)).

يتابع الشاب محمد حوري محاوِر الحاجة الميلودية . طالب باحث بشعبة علم الاجتماع ويحضّر لشهادة الماستر في تتبع كرونولوجيا الأضرحة بين التأسيس والتأريخ في جهة الغرب من بلاد المغرب . يسألها من جديد:

.أين هو الضريح ؟

تضحك الحاجة الميلودية ساخرة منه وتكتم بنظرتها مزيد فضوله في النبش. تجيبه بمكرها:

.وهل رأيت للماء بناية ؟

يشعر باستبلاد صغير. فعلا، لا بناية للماء. ينتقل منقذا لنفسه من المأزق، وهو الطالب الذي لا يملك سوى منحة صغيرة للدراسة تدعّمه بها كلية دخلت في شراكة مع كليته بجامعة ابن طفيل بمدينة القنيطرة، فيسألها عن التسمية الثانية (سيدي بوزبطة).

. آوليدي. زمان كانت الحشمة. المرأة إذا أرادت قضاء حاجتها أو الاغتسال ذهبت إلى مكان ناءٍ. في نظرك، كيف يستحم الإنسان في الماء؟ بدون ملابس، بدون حوايج. مول الما ليس بإنس. فهمت ؟ إذا كان جنا، الله أعلم. قد يظهر، وقد لا يظهر، قد يكون مجرد رجة ماء متدفق إلى أعلى. لا تظن أنه لقاء بين إنس وجان. هو الماء الذي جعل الله به كل شيء حي.

.وهل رأيته أنت آمّي الميلودية ؟

.أنا الحاجة الميلودية الله يرضي عليك. ثبّت معي. لو كان الشر فيما وقع لما قبل الله مني الذهاب إلى بيته الحرام. جسدي مطهر بماء زمزم. أنا لم أر شيئا .تصرخ وتردد .هو الماء. مجرد ماء متدفق فوّار. يحكي الناس أنهم كانوا محيطين ببَركة بِركته، وفجأة ظهر رجل فاره الطول، مجدول الشعر مثل سيدي عبدالرحمن المجدوب. صرخ أحدهم:

.سيدي بوزبطة جاء !

توارى بسرعة برق مختفيا بين خلجان الضفاف، لم يظهر له أثر. يقول الناس أنهم رأوه في نبع الأودية الكثيرة ومنحدرات الجبال البعيدة. لكنه الماء الذي يجري ويسري حتى البحر. قادر على كل شيء).

في تلك السنة من الحوار، كانت أمّي الميلودية أو الحاجة الميلودية تتهيّأ لزيارة الديار المقدسة للمرة الثانية. عادت من الحج وتشددت في حديثها. لم تعد تقبل الحديث عن مول الما أو معجزاته.

*

(حينما يخترق النور شقوق العتمة)

جاب الروهاني بلدانا كثيرة. لم تسعفه منطقة (تيسرى) في البقاء مختبئا وآمنا. شعر بتهديد كل طلقة رصاص يسمعها من بعيد أو عجلةٍ مارة فوق الطريق بصخب محركها. تعمّق في الجبال الممتدة شرقا. هناك حيث الغابات تجاور الأنام، وحيث الكهوف تراقب السفوح. لم يرتح في نومه بمقابر المسلمين هنا أو هناك. تقرّب من رعاة أغنام ومعز. جاورهم في يوميّهم. تكرّموا عليه ببعض خبز وتين وزيتون وماء قلة أو لبن. اكتشفوا جهله للغة العربية تقريبا. علّموه التخاطب بها. هي دارجة عامية تختلف من منطقة إلى أخرى. لكن نطق الروهاني بها جعل بعض الحروف تنفلت من قبضة لسانه وفمه وجهازه الصوتي. حرف العين، وحرف الحاء. وكأنه طفل متوحش خرج من الخلاء. وجد فيه مَن الْتقَوْه فرصة عجيبة لاكتشاف صنف آخر من البشر.

لم يكن الروهاني ليتكلم باللغة الفرنسية التي تعلّمها منذ صغره. يخاف أن يكتشف أمره. قاوم بالصمت وعدم الرد حتى تعلّم الضروري وأجاب بالمناسب مع تسلسل الأحداث ودروس التعلم.

أعجبه أن يلقب نفسه فيما بعد بالروهاني. لكنه لم يكن ليلتقي بأناس كثيرين. لم يكن لينخرط في حياة مدنية أو اجتماعية. حالات الصرع بدأت تتطور. اختلطت معها صورة الموت والقتل وأصوات أخوات الكنيسة في صراخهن. أصبحت الكوابيس أشدّ من حالات الصرع. تفاقم الاضطراب الذي جعل الروهاني يزداد خلوة واستيحاشا وبعدًا ما أمكن عن ليلة قضاها في مكان ما إلى آخر أبعد.

عبوره لسكة الحديد وهو على مشارف مدينة مكناس جعله يبحث عن مخبإ حينما سمع صوت القطار وهو آت من جهة مدينة سيدي قاسم. كأنه يحفر الجدار الصخري ليبتلعه وينمحي كليا. فجأة يتزحزح صخر ويطاوعه في إيجاد فتحة ومدخل مناسب في جوفه. سقط الصخر داخل النفق. ارتمى برأسه وأتْبَع جسد ورجليه. بقي النور مخترقا الفجوة. مرّ القطار ورؤوس بقبعات كأنها تنظر إلى فتحة الجدار وتبحث عن الروهاني واقفة على طول بعض المقطورات العارية إلا من عتاد مغطى. سارع إلى رد الصخرة على الجدار. طغت العتمة على المكان، لكن الدرب المظلم يسعفه قبس من نور وبصيص ظل يساعد الخطو في اتخاذ المسير. منتهى النفق، كأنه جدار صخري، وكأنه باب خشبي سميك مغطى بالتراب. بكلتا يديه الصلبتين، وهو الروهاني الذي خبرته الطبيعة واشتد عوده مع قساوتها، جعل الباب تتبرم لينفلت جنبا داخل قاعة فسيحة بها أشياء مختلفة ورفوف متعددة. كانت هي قبو الفيلا، فيلا ماري روز التي ستصبح ملاذ وسرّ حياة الروهاني، الهارب من طقسه، و(بّوتي جون) الهارب من جريمته.

(الجيلالي بوجنان)

أو منعرج السلام!

*

أصبح الروهاني في عقده الرابع. مرت أكثر من ست وعشرين سنة تقريبا على هذا الحال. أصبح له تاريخه الخاص. حينما يجلس في هدوء واستراحة وراحة بال، لحظات تناغم بين الذات ومحيط الحياة، يتأمّل ألوان النبات وأوراق الشجر، تشكلات الأحجار وتموجات التضاريس، هذه السماء الفسيحة التي ترى كل شيء ولا تتلكم أو تتدخّل في حال الخلائق، يسترسل في تأمّله البسيط ويسترخي فاتحا عينيه. قد تدوم جلسته لساعات أو لدقائق، قد توقظه منها أصوات عابرة أو مقتربة، مثلما أنه قد ترعبه تفجّرات الذاكرة التي لا يأتمنها في سلامته، فينقلب الهدوء إلى توتر وقرب انفعال وحالات صرع متجددة.

ذاكرةُ الروهاني رتّبت الأقوامَ والمداشر كما المدن التي مر وعاش بقربها. استرجعت الفهم الذي يقربه من الآخرين. ائتمن العيش الجديد ووضعه، هو أفضل له من زيادة في التعريف بنفسه قد تسقطه في فخ الاعتراف، ولا يدري ما يمكنه أن يتبع هذا الاعتراف. كما لا يدري أنه مورّطٌ لنفسه في مزيد لوم وشعور بالذنب ومحاكمة بطيئة تسحق نفسه فلا تجعلها ترتاح أو تستوي في راحة بال.

ها هو جالس فوق حجرة منبسطة كصفيحة ورجلاه ملوحتان في فراغ ما تحت المنحدر المؤدي إلى الوادي. كان يرقب الأسفل لكنه كان مراقَبا من أعلى قمة التلة التي ارتاح لخلوتها هذا الشهر الساخن من فصل الصيف. إنه شهر يوليوز الذي لم يستضفه الروهاني جدولة زمنية ولا تقسيما شهريا أو سنويا. منذ غادر مؤسسة الأخوات بقيت ذكرى ما تعلّمه وكأنها شاهدة على جرمه. حاول نسيان ما تعلّمه، أو على الأقل عدم تذكره أو استعماله في تفكير أو خطاب أو

توظيف في عدّ. وما ينفع عدّ الشهور والسنوات لهائم وسارح في بلاد الله العجيبة.

تُفاجئه عبارة (السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته)، الآتية من خلف ظهره. يقفز من جلسته حتى يكاد المنحدر أن يجرفه ويجر قدميه إلى السقوط وعدم الثبات. يلتفت وأنفاسه تزفِر في استنفار. حالة خطر ربما. هجوم مباغت سيقضي عليه، وأخطر ما في الأمر هو غدر اللحظة وعدم الانتباه إلى ما يمكن أن يقع فيها ومعها. شعور فطري يمتلك كل الخلائق، لكن تلويحة المحيّي بالسلام حينما التقت عينا الروهاني مع نظرة صاحبها جعلته يندهش للتطابق. الحال هو الحال: لباس رث، ولحية طويلة وشعر مجدول وأسمال غريبة. لفت انتباهه ذلك (العُرف) الخارج من رأس مخاطبه والذي يزيد في كثافته عن شعر الرأس ككل. تلمّس رأسه فلاحظ عدم وجوده عنده. تلك السبحة الصفراء الكبيرة المتدلية فوق صدره بحباتها البارزة. تلك العصا الغليظة التي يتكئ

عليها واقفا، والتي تتدلى منها أطراف ثياب مختلفة الألوان.

لولا الابتسامة التي أبداها المحاور لكانت فرارا أو صدّا لمحاولة هجوم أو انفعال حالة خوف يثير عنفه وأحجاره. بقي جامدا في مكانه بعد رجة فزعه. ردّ التحية والسلام وانتظر. نزل الضيف مقتحما خلوة الروهاني ومقام تأمله. وكان تبادل السلام بالأيدي عن مسافة مِترين تقريبا. حَذَرٌ هو وقد لمَسَه هذا الهائم كذلك. عرّف بنفسه وعيناه تفحصان هذا الغريب التائه في منحدر هذا الوادي:

.أنا (الجيلالي بوجنان). ضيف الله القادم من مراكش والمتجه صوب مدينة مكناس ثم زرهون فوزان.

التقط الروهاني كلمة الجيلالي وفهم على أنها اسمه. ردّدها، وعرف بنفسه في نطق سريع، واضعا قبضة يده اليمنى على صدره:

.الروهاني، الروهاني.

ابتسم الجيلالي بوجنان لحركته وردّه وفهم براءة فطرته وبساطتها، واستنتج خلوتها وغرابتها عن

المألوف من الأنام. جلس بجانب الصخرة قبل أن يعرف ما سيرغب فيه الروهاني. فتح قرابه وأخرج تينا يابسا ووضعه كمائدة ووجبة أكل إلى جانب قربة مائه المشكلّة من جلد ماعز صلبة ومتينة. دعا الروهاني للأكل واسترسل في الكلام معرفا بشخصه وهويته زيادة في التقرب من جليسه، هذا الجديد على رحلته.

*

"في بعض الأحيان تكون شخصية الآخر هي مرآتنا التي لم تتحقق معها أقدارنا ورغباتنا، لكننا نرى فيها مصيرنا وتجاربنا المنفلتة."

كان يعتقد بأنه صلبٌ في وضعه وخشونته وغرابته، لكن شكل الجيلالي بوجنان جعله يراجع نفسه ويعتبرها صغيرة وضعيفة أمامه. هكذا كان انصياعه وقبوله مرافقة الجيلالي. حواراتهما المتقطعة وقد بنت معرفة كل واحد بالآخر دون الغوص في جذور الأقدام. حينما يقوم الجيلالي للصلاة يتأمّله الروهاني مقرفصا ومتابعا بخشوع كل حركة وكل كلمة قد يسمعها. اضطر الجيلالي بحدسه لكي يجعل أذكاره وقرآنه بصوت مسموع. جهرا يؤدي الظهر والعصر وباقي المطلوب سرا.

تنهد الروهاني في لحظة مستقطعة وهو يرى شرود الجيلالي بوجنان داخل طقس صلاته. شعُر بفارق نفسي وحاجز داخلي يحول بينهما وقد يصعِّب كل تفاهم وتواصل. اجترّه ألم المقارنة والتحليل إلى ماضيه البسيط والمعقّد بغموض خيوطه التي اشتعلت فيها النيران فلم يعد قابضا على فتيل لها أو قبس ذبالة متبقية.

من يكون حقيقة في انتمائه؟ وهذا الذي يشبهه في حاله، يزيد عليه بكثير من أوصاف شخصية وطقوس فريدة. أصوات آدمية وأخرى

شكّلتْها الطبيعة وخلائقها الحيوانية تؤثث فؤاده. يأتيه منها ما يزعزع استقراره كأنها عجيج معتمة أو سفون جارحة وخادشة. لكنّه الروهاني الذي علّمتْه الجبال أن يكون في مثل صمودها وقسوتها، سرعان ما يتحول التنهّد عنده إلى زفير يفرغ معه الهمّ القائم ويستقوي به لأجل الاستمرار في الحياة ومواجهاتها.

يعود لتذكّر جميل. هو كذلك يمتلك علاقة مع السماء وحبها. توافَقَا في حب السماء ونداء الله إذا. حينما يلوّح الجيلالي بسبابته إشارة إلى التوحيد، يردّ عليه الروهاني بصفحة كفه الممدودة والتي يصافح بها صدره وصدر مخاطبه ورفيقه في الرحلة. فعلا هي رحلة ما دام الجيلالي بوجنان من المجاذيب الذين اتخذوا الرحال لزيارة مقام الأولياء. بدأ رحلته منذ خمسة أشهر تقريبا. عبر خلالها بلاد عبدة ودكالة منطلقا من بلاد مراكش والرحامنة، ثم جاء إلى مقام كبار الأولياء الذين لا تكتمل السنة وجذبة الروح في سفرها وقربها من خالقها وشفائها من حالها إلا مع زيارتها. تنقّل بين أضرحة الأولياء، بين موسم عامر وزيارة عادية. سيدخل مدينة مكناس من جهة وادي الشجرة قبل أن يرجع الخطو لتسلق جبل زرهون ومقام سيدي علي بن حمدوش ومولاي إدريس. ولن تهنأ الأنفاس إلا بعد الوصول إلى مولاي عبدالله بوَزّان، فمولاي عبدالسلام بن مشيش في أعلى قمة جبل العَلَم شمال المغرب.

وهو يسمع خريطة تجوال الجيلالي شَعُر الروهاني برغبة ملحة في الانخراط وتجربة جديدة على روحه وحاله. كأنها تستلّه من الرعب والخوف الذي يمتلكه. كأنها ستشفيه من وخز ذاكرته وجريمته التي تقادمت في أعماقه. شعور حدسي توافق مع هويته تقريبا. فقد أحس بأنه لا ينتمي إلى مكان محدد أو قبيلة أو جماعة. وانتماء الجيلالي

نقاط متعددة وأمكنة مختلفة، والأهم أنها أرواح منادية بمقاماتها وخوارقها وكراماتها. هذا ما وعد به الجيلالي رفيقه الروهاني. هذا ما غسل صفحة روح هذا الأخير وجعله يطمئن لنداء السفر الهادف بدل هذا التيه الهائم في عدم الزمن والوجود؟

سيركب الروهاني سفينة التجوال والسفر. دليله هو هذا الغريب عليه، والأكثر عجبا من حاله. كان يقارن حاله بحال الأنام الذين يعيشون في تجمعات بشرية هنا وهناك، أو الذين يتخذون أُسَرًا وأزواجا وأولادا، لكنه الآن يقيس نفسه بمن يشبهه حالا ويقترب منه تجوال وترحالا.

...

وصلا إلى مقام ضريح الشيخ الكامل بمكناس. كانت مواسم المولد النبوي الذي يوافق الثاني عشر من ربيع الأول من كل سنة هجرية جديدة. مناسبة ابتدأ الاحتفال بها بشكل فردي أو أسري أو اجتماعي. لكنها بمكناس كما بغيرها من مدن مغربية وإسلامية، اتخذت شكل موسم كبير يؤم فيه الناس لزيارة الأضرحة والمرابَطة بها.

يشتد نبض الروهاني ويزداد كلما اقتربا من هذا الجمع الغفير المنشغل عنهما وبهما. قد ينظرون إلى قدومهما كما قد يهملون حضورهما. الكل مفتون بهذا الاجتماع الذي يعطي هوية وكينونة جديدة وتفسيرا للوجود في الحياة ربما. وفعلا هو شعور انتاب الروهاني وأثار تساؤلاته التي لم يبحث عن إجابة لها.

بأية لغة سيفكر وهو المبتور عن تكوينه الطفولي، وهو المرتق بلغة التواصل العامي التي لا يمتلك منها إلا الضروري في التواصل الكلامي والحوارات النادرة التي قد تضطره للحديث مع الناس.

ذهبت فترة التواجد الاستعماري والتي لم يفسرها بلغة وثقافة الاستعمار والاستقلال، ولا بفلسفة التاريخ وصراعاته. الروهاني، ابن الكنيسة في التربية، ولا يعلم كيف جاء للوجود. لكنه الروهاني الذي امتلكه الصرع وحالاته الغريبة. استأصل جذور هذا الامتداد وحاول تغييبها أو التفاعل معها بمشاعر حنينية. في هذه اللحظة التي يقف فيها بجانب بوجنان الجيلالي . تحت شجرة وارفة الظلال، غير بعيد عن مقام الضريح، لكنها متخذة مسافة عن الأنام المتجمعين والمتجمهرين والسائرين في ذهاب وإياب بلا اتجاه محدد سوى مركزية هذه القبة التي يراها خضراء وبجانبها صومعة تؤذن للصلاة ـ ودّ الروهاني لو أنه ارتمى في هذا الموج الممتد بالبشر، لكي يصير نقطة في بحر تمحي تاريخه وماضيه وتجعله طبيعيا مثلما يمكنها أن تجعل له انتماء.

أهُما العزلة وشقاوة العيش اللتان عاناهما؟ اختلطت أنفاسه ولم تستبن الشعور الحقيقي لوجدانه. رؤيته لهذه الطريق الصاعدة لبناية الضريح، شاركه فيها الجيلالي بوجنان بتوجيه انتباهه:

. سيكون مقامنا هنا. لن ندخل بناية. سترافقني إذا شئت في تجوالي، لكنك ستردد أذكاري دون حاجة لأن تحدث الناس. أعلم أنك تتحاشاهم وتتجنبهم.

كطفل صغير، سمع كلام الجيلالي وساير خطوه بتؤدة بعد استراحة قليلة. وقفا أمام جدار الضريح. حيّى الجيلالي (الشيخ الكامل)• في ركوع متكرر مع التكبير والترحم. كرر من ورائه الروهاني ذكره:

.الله أكبر. اللهم ارحمنا وتقبّل منا صالح أعمالنا.

اقترب بعض الناس منهما، وكأنهم في فرجة موسمية احتفالية. يعلمون أن هذين من المجاذيب. لكن بعضهم لا يعلم فلسفتهما وطريقتهما في العيش. قد يضيف في التعريف بهما أساطير وخرافات. لكن، لن يقترب من حقيقتهما سوى مَن فهم منطوقهما وتعبيرهما، إن كانا فعلا، هما الاثنان، من المجاذيب؟

قلّد أحدهم عنقيهما بسبحتين جديدتين. تقاطرت بعض قطع النقود داخل دائرة جذبهما. وهناك من جعل أوراقا مالية أو قطعا نقدية حول دائرة حزام الجيلالي بوجنان أو أمامه. يبدو من خلال اهتمام هؤلاء الحضور حولهما بحثهم عن شيء وطلبهم تحقيقه وتلبيته. بتجربته وحدسه كان الجيلالي بوجنان يعلم مبتغاهم تقريبا. بعض النسوة أو الرجال الحاضرين قد لجؤوا إلى مقام الضريح وموسمه ورجاله ومجاذيبه من أجل مداواة جرح أو شفاء من مرض أو مباركة رزق أو خلاص من عقم... وكل هذا يختمر في عيني الجيلالي ويقرأ بهما خصوصيات اللحظة في عيون الدائرة. بل قد تجده تذكّر أشخاصا سبق له التعرّف عليهم في مناسبات وزيارات سابقة. أشخاص لا يشفون من عللهم إلا بهذه التبركات وكأنها جرعات ضرورية في مواسم ولقاءات.

•- هو الشيخ الكامل المعروف عند عامة الناس بالهادي بنعيسى مؤسس الطريقة العيساوية. 1526/1467 م.

قد يصرخ في لحظات باسم الجلالة الأعظم: الله. الله. الله... قد ينادي السماء فوق رؤوس الأنام: أنا بوجنان جيت قاصد وتايب. وهؤلاء عبادك الفقراء اغفر لهم وارحمهم. اللهم اشفهم ! اللهم بارك لهم ! اللهم هبْهم الذرية الصالحة ! اللهم أبعِدْ عنهم شر الخلق ووساوس النفس ومكائد الشياطين ! الله، الله، الله...

يأخذ أداة طربه المنشد ويبدأ في الذكر: الله يا مولانا...

تُسمع بعض التعاليق مثل:

.الله ينفّعنا ببركتكما.

.الله يتقبل منا ومنكما.

.شايلاه آ رجال البلاد.

يتابع الروهاني بحذر ما يقع، ويلاحظ هدايا المال والطعام. يتضور جوعا لطول المسافة التي قطعاها، لكنه يصبر على حاله حتى ينتهيَ رفيقه الجديد من طقسه الروحاني والذي يستحضر معه هو الآخر ابتهالات الصلاة الكنسية القديمة في ذاكرته.

حينما انتهيا من هذا الوقوف والابتهال والذكر، تخلّص الجيلالي من النقود التي جمعها في كيس ووضعها أمام عتبة الضريح. أخذ بعض الطعام بعد أن تذوقه وانصرف لحال سبيله. كانت لغة التواصل مع الروهاني نظرات توحي بضرورة الرجوع إلى الشجرة الظليلة أسفل الطريق. تعطي جلستها نظرة لبساتين الخضَر والنعناع وسواقيه. تنبسط حوضا تكلل ببركة هذه الشجرة الزينب مختلطة الوظائف بين الأنام والخلائق.

قبل مغادرتهما لساحة الضريح اختبر الجيلالي بنظرته شخصا جالسا بجلبابه الأنيق بجانب العتبة، والذي عرض عليهما المبيت في مزار الضريح، ثم ابتعد مرددا:

.أرض الله واسعة في المقام، وأطهر من شر الأنام.

انشرحت أسارير الناس الحاضرين لرؤيتهم هذه المفارقة وهذا التصرف الغريب وهذا الزهد الكبير الذي يسمعونه عن المجاذيب، وها هو مجسّد خلال هذا الموسم. والجل سيحمل الرواية والروايات وسيجد ما سيحكيه كشاهد للغائبين عن فعل وقوعها.

في الطريق، حاول الجيلالي إيناس رفيقه الذي اعتبره منذ اللحظة مريدا عنده، ما دام يطاوعه ولا يعارض طقوسه أو نشاطه. فسّر له بعض تصرفاته:

.أنا مجذوب ولد الحال. مقامي وبيتي في أرض الله الواسعة وسقفي سماء رب العالمين. أضيق بين الجدران وأختنق في حضرة الأنام. أدُبُّ فوق الأرض وأزور الأولياء الصالحين. أعيش على الطعام ولا أقبض المال. سقفي سماء الله العالية وجدراني نوالة من القصب وقلبي بحر ما له ضفاف سوى حب رب العالمين.

لم يكن ردّ فعل الروهاني مستغربا ولا مندهشا. لم يبدِ اهتماما لما تركه هناك من مال. كما لم يعلّق على ما سمع من الكلام. تابع سيره وانتبه لعشيره في هذيان كلامه. له أن يختار بين ترديده أو مجرد سماعه. في بعض الأحيان يروق له تكرار ما يقوله الجيلالي، وأحيانا

أخرى يبقى متابعا وصامتا أو مبتسما ومنتبها لجديد لازمات الكلام والذكر عند الجيلاي بوجنان.

و(الحال هو الحال). استمرا عليه في مقامهما الليلة في حضرة ومقام الشيخ الكامل. كانت الغرائبية أشد وأقوى، لم يستطع الروهاني أن يبقى محايدا فيها، فانخرط في جذب خاص وجديد.

*

لأول مرة يجرب الروهاني مادة مخدر الكيف. جلسا سويا تحت سقف السماء المؤثث بنجوم بارقة. طبول هنا وهناك، وعراك يدل على تمكن الثمالة أو ضبط لص متسلل لخيمة من خيام المرابطين في موسم الشيخ الكامل والمتفرقين في الساحات الممكنة للتخييم.

رفض الجيلالي بوجنان كل عروض الإقامة، وبعضها كان امتحانا متجددا لمدى تمسّكه بفلسفته وجذبته. كانا اثنين، لكن سرعان ما التحق بهما ثلاثة مجاذيب آخرين. ربما رائحة الكيف كانت لها جاذبية استقطاب، ربما هو موعد سنوي بدون سابق إنذار أو إخبار.

هي استراحة من حال الجذب، ومن تعب السفر. تبادلوا الأخبار كما عيدان (السبسي) المملوءة بجرعات نبتة الكيف. تبادل بعضهم كؤوس (ماحيا) دون أن يشاركهم الروهاني نخبها هو ومجذوب آخر أتى بمفرده من مقام مولاي إدريس زرهون والتقى بهم في هذه الليلة.

. إننا نمسح ذنوب الناس. هذا الصدر الذي تراه أمامك تحت هذه الدربالة مكنسة للعالمين. وهذا القلب الذي وهبني الله أريده ويريده موضع استحمام وطهارة. الله يحب عباده الفقراء والمجانين مثلما يحب الصغار وملائكته المبجلين. لا نريد مال الدنيا ولا عمرانها ولا متعها.

. أكثِر من التسبيح والاستغفار يا الجيلالي. هيّا يا ابّا عمر، حرّك ذلك (الگّوال).

"الله يا مولانا، الله الله يا الله مولانا،

الله يا مولانا حالي ما يخفاك يا الواحد ربي.

سبحان الحي الباقي سبحانك يا اله جود علي

بك عمّرت سواقي ونحلتي في نواورك مرعية"

يتابع الروهاني الغناء منتشيا ويقوم للحضرة بجانب ابّا عمر حتى درجة الغيبوبة المرجوة في التواصل مع العالي مرددا كلمات أخذت تضمر وتضمر مع انهيار الجسد عن الحركة:

"آمولاي محمدي، آ داوينا يا بوعمامة خضرا."

...

كانت ليلة فريدة من نوعها وتجربة جديدة على الروهاني، اكتشف من خلالها طقس المجموعة حين الالتقاء. لكنه استغرب في الصباح حينما لم يجد أحدا منهم في المكان. حتى الجيلالي بوجنان لم يعد له أثر. ما وجده، وجبات فطور متنوعة جادت بها بعض الخيام القريبة. آخرها قدّمتْه امرأة عجوز طالبة البركة والدعاء من الروهاني، مقبّلة جبهته ورأسه، مردّدة كلاما جديدا على مسمعه:

. أنتم الذين تعرفون قيمة الحياة وغدرها. هي فانية، مثل خيمة تنصب مساء وترفع صباحا. الرحلة والراحة عند الله تعالى. الله ينفّعنا ببركتكم.

هام الدروب القريبة، وعاد لمقام الشجرة منتظرا. ربما جولة صباحية أخذت صاحبه هنا أو هناك. شعر بأنه مشرّدٌ فعلا. كانت له جماعة انتمى إليها وإلى طقسها بالأمس، اندمج وجدانيا معها. سمح لدواخله بأن تتقبّل كل كلمة وكل غناء وكل نكتة وكل حكمة، كسّر مناعة تجلّده الذي يحتاجه لمواجهة هذا الوجود القاسي الذي صنع منه شخصا غريبا عن كل التجمعات البشرية.

شهق كطفل صغير، دون أن تنهمر دموع من مقلتيْه. اختلط ريح الكيف مع حشرجاته فجعل نفَسَه كريها. لأول مرة ربما يكره وحدتَه وعزلتَه. أصبحت له أسرة تشبهه في حالها، لكنها غدرتْه وتركتْه من جديد. لم يعِ تشابه الحالة النفسية مع حالة صباه وولادته، حين تركتْه أمه بباب ضيعة بمنطقة (بّوتي جون)، مع تشبيه المرأة العجوز للدنيا بالخيمة، وهو لاخيمة له، له العراء تحت سقف السماء.

بقايا طعام متفرقة كأثر لجلسة أمس. ثلاثة أطباق فطور موضوعة أمامه. أكل من هذا وتذوق من آخر. مضغ بعض الطعام ولاكه واتخذ سيْره الهائم من جديد. الشعاب القريبة تنحدر وراء بساتين (سيدي بابا). من أعلى، وبعد أن ترك خلفه أقواس (ثلث فحول)، بدتْ له خطوط منعرجة للسكك الحديدية تمر من فوقها مقطورات متماسكة. هي وجهتُه الآن. هذه السكك التي ستقوده إلى فيلا ماري روز من جديد، مثلما تقود الساقية متتبعها إلى النبع. كسمك سلمون إذا. لكنه لم يكن ليتوقع مفاجآت اليوم بالتأكيد.

*

تعلّق الروهاني بنشيد المجذوبين. حفظه مثلما حفظ جذبته وضرب صدره بصفحة يده وكفّه. اختار الذهاب بخطوات تنط بين لوحة خشبية وأخرى على طول سكة القطار وفوقها. خاف من نسيان الكلمات وإنشادها. ردّدها متقطعة، ثم سرعان ما استجمع لوحتها فاكتملت دون أن يكون قد استوعب كل معانيها. لكن جل كلماتها أثّرت فيه وجعلت له سياقا يفكر فيه.

ومثلما امتلأ الدماغ بالكيف، امتلأ الذهن بالنشيد. أصبح للروهاني عالم غناء وتفكير يملأ يومه ويردده ويحارب به وحشته. سيسمعه آخرون ويتابعون سيره وإنشاده. سيعتبره بعضهم مجنونا مثلما سيرشقه بعض الأطفال والمشردين منهم بحجارة التقطوها لسلوك عبثي سيجر عليهم وابل غضب الروهاني.

لكنه منتعش وسعيد بنشيده:

(آمـولاي محمـد آداوينا يـا بو عمامـة خضـرة

الناس زارت محمـــد وانـا اسْكـن لـي فـي گلبـي

الله الله الله يا الله مولانا

الناس زارتوا بالمركوب وأنـا نمشـي له على رجلـي

الله يا مولانا الله الله يا الله مولانا الله يا مولانا

حالي ما يخفاك يا الواحد ربي، جيت زايـر ومعبـد ألسيـد الرسـول العربـي،

سال الملايك سال الروح سـال حمـال العـرش

سـال حفاظـة اللـوح قلبـي مولـع بالقرشـي

من لايمني ف هاذ الحالة أنبيـع لـه يشـري منـي

أنبيع له بيع المحتـاج وإلـى جـرب يعذرنـي).

استغرق مسيره من مقام الضريح إلى مكان الفيلا النهارَ بأكمله. يعلم الروهاني أن وصوله إلى مشارف الجدار المؤدي نفقُه إلى قبو الفيلا يحتاج للّيل أفضل من النهار، حتى يأمن عدم تهديدٍ لأعين متلصصة. خلال تيهه النهاري بين الأودية والشعاب والمسافة الطويلة التي اتخذها للذهاب، كان عقله منتشيا بالمخدر وما يزال.

ها هو من جديد يهذي بالكلام الذي رسخ في ذهنه. شعر بسعادة حينما حدس أنه قادر على تذكر شيء ما بشكل جيد. هي إذا ذاكرتُه القوية. سيعمل على ترويضها لمثل هذه الأمور في المستقبل. قد يقف فجأة فتنقلب ابتسامته المدفونة إلى تكشير وصك أسنان وانقباض ملامح. يجترح بالماضي المجهول في سيرته مثلما يجترح بفقدان هذا الشخص الذي يشبهه في حاله. يشعر بغدر الحرمان والفقد وبُعد الثقة في الآتي غير المضمون وفي الأشخاص الذين قد

يغادرون كذلك. (بقدر ما يطمّعونك بقدر ما يخونونك، حتى في مشاعرك). هكذا حكمته الذهنية وهو يفكر في الأمر.

زاده فقد عشرة الجيلالي حبا له وتعلقا بطيف شخصيته ووقفته وطريقة كلامه وجذبه. قلّدها وهو في الطريق. ردّد بعض أذكاره القصيرة التي سمعها منه. لا يعي ما يقع ولِم يقع. استشعر تشابه هذه الأذكار والأشعار مع طقس الكنيسة الذي تربّى على ابتهالاته. استحضرها في بعض مما تذكّرته مخيّلته وأفكاره، وهو يدمجها مع مثيلتها بالعربية. أصابه رعب جديد وارتعاش ورغبة في خلوة أشد ابتعادا عن الخلائق.

بدأ في حركات الجذب دون أن يشعر. صار الدم فوّاراً في عروقه. ازدادت حرارته. تبدّت له أوجه الأخوات والقس وهي مطلّة على امتداد جسده المرتجّ. رفع بصره إلى دائرة الأعين المبحلقة فيه كمريض أو كعيّنة للاختبار في حقل تجارب. لا يدري هل حضورهم واقعي أم مجرد تخيّل وهذيان. اختلط عليه الأمر. هاج وصرخ كأنه سيجهش ببكاء طفل لن يوقفه سوى ثدي الأم. وهل شعر فعلا بأمومة في صغره؟ هل كان له حضنها في رضاعته؟ حسرة سال معها لعاب مرٌّ مرير كأنه سمٌّ يسحق أعضاء جسده. تفل. جرع ماء منفلتا من الساقية الصغيرة وراء أجمة عود قصب أخضر بأوراقه المتمايلة مع رياح الوادي. استغرب فيما بعد كيف لأذكار الجيلالي بوجنان وقد اكتسحت طقس صرعه وغيبوبته الواعية داخله:

(الله حي في كل مكان، لا في القبر ولا بين الجدران).

ردّدها، وانتقل إلى توحيد ما نطقه ووعاه: الله حي، الله حيّ. هي حروف ناسبت جذبته وحاله. الحاء واللام والهاء، حروف تجعل الحلق عارجا عموديا للهواء، للسماء، مستعينا بالجوف واللسان، ضامنا هذا النداء القارع للعلا. حالة انتشاء هي، جاءت عقب صرعه. بدا له أن رأسه ثقيل مثل بيضة متحركة داخل قشرتها. نام لساعة وزيادة، وقام لتكملة المسير بين سكّتي الحديد.

كان حظ أرنب تعيس مَرّ من فوق السكة أن رماه بعصاه. أرداه في بركة دم صغيرة. بقعة حمراء لمسها بأصابعه وتذوقها ساخنة في طرف لسانه. كيف لها أن تصل إلى حلقه فيبتلعها مُرّة هكذا؟ سرى في شرايينه عطش غريب. شرب من نزيف الأرنب وتركه في نبضه الأخير وانسحب.

امتلأت عيناه بحزن وذكرى جديدة لم ينتبه لها من قبل. داخل أطلال دائرة الكنيسة المنحنية بأعناقها وأعينها والمتتبعة لارتجافه واضطرابه، كانت صورة أب الكنيسة الذي تودّد بنظره إليه ومسح على خدّه وجسده حين خموده من صرعه. كيف لمسَ أعضاء جسده عضوا عضوا، وكيف مرّر أصابعه على ظهره ومؤخّرته. شعر بأن شيئًا غير عاديٍّ قد وقع. لكنه سرعان ما تجاوز التذكر بانعراج مسيره متخفيا وراء زروب البساتين، خصوصا حينما شارفت رؤياه مباني مدخل المدينة الجديدة (حمرية) واقترابه من الشاهق منها، من المستشفى، ومن الثانوية المطلة على ممر سكة الحديد.

يوم غريب ومتقلّب، وتغيرات كثيرة عاشها. لكنه مصمم على العيش بهذا الجديد الذي اكتسبه وبالبحث عن مادة الكيف التي لطالما شاهد بعضهم يدخنها. دخل من فتحة الجدار السرية، وصل إلى

قبو الفيلا، سمع صراخا وأنينا وتوسلا، ارتعب وارتعش. تجمّد في مكانه بداية، لكنه سرعان ما بحث عن مصدر الصوت الذي يصرخ ويئن مجترحا. كانت المفاجأة أن جدارا آخر مبنيا أعلى الدرج يخبئ وراءه بابا سريا جديدا. لم يكن بابا قائما حقيقة، بما أن جدارا من الآجور ناب عنه ليملأ إطاره. نبش بلاط الإسمنت بين قِطَع الآجور، استعان بأظافره ثم سرعان ما أخذ عودا خشبيا صلبا، رمقه مرميا فوق أرضية القبو فحفر به ثقبا سيخترقه نور من وراء الجدار، مثلما سيخترقه عالم جديد لم يكن يتوقّعه.

وكأنه أتى من زمن بعيد لكي يحل في زمن حاضر. كأنه سافر عبر الزمن والأشخاص، بين الأموات والأحياء لكي يشاهد العجيب الجديد.

(فيلا ماري روز)

*

عالم الفيلا التي بناها مهندس ومخطط بعشق وبجمالية تجمع أمنيات وأحلام العيش المشتهاة، من الألوان والزخارف البديعة، لن يجد لها المرء شبيها سوى في ديكور تزيين جدران قاعة المسرح الكبير (الريجون) وسينما أومبير وكاميرا، هذه الأخيرة التي رسمها الفنان وأستاذ الفنون التشكيلية مارسيل بوديرك سنة 1938.

هي تعبير وديع عن اختيار راقٍ لتذوق طعم الحياة اليومي البهي. وتشبيه لم يعِه سوى من بنى الفيلا وزخرفها وقارنها عشقا لعمران فنيٍّ راقٍ. هذا العالم الذي أثّثته ماري روز، بصوتها وقامتها وأنوثتها التي اعتبرها زوجها بيير لوحة متحركة فوق بساط قلبه وتحليق فراشات فرحه، زاده ذلك البيان تقسيما لنوتات ألحان عالمية. وحينما ينطلق غناء بعض مقاطع الفرح والرقص تجد معه الحياة عامرة ومكتفية بشرط اكتمالها وإشباعها.

الأثاث الذي كان من خشب الأرز والصنوبر. الأرضيات وتغليف الجدران الذي ساعد خشب الأبلكاش على جعله نضرا جميلا مطواعا مع استدارات الدرج الصاعد والملتوٍ كرسم لنوتة موسيقية على ورقة بيضاء. الأرائك التي تنوّعت بحسب الجلسة، والتي كانت بسعة كل

صالون محاطة بأثاث ومنضدات، وبُسطت من تحتها زرابي مزركشة الألوان. اللوحات المعلقة على الجدران، والتي تعود لرسامين مشهورين منهم ويليام الذي أهدى لماري روز لوحتين كبيرتين منهما، إحداهما عبارة عن تخليد شخصي لجمال ماري روز جعلها في فستان وردي شفاف وبفولار منسدل على صدرها، أزرق سماوي شفاف كذلك.

كانت ماري روز تجلس أمام هذه اللوحات، مُدخنة لسيجارة، ومتأملة للون العينين ومسالك الجيد في كل لوحة، كانت تشعر بأن أنامل الرسام تمرر على جسدها وليس على القماش، فتأتيها تلك القشعريرة التي يهيجها الشوق. قد تنتابها حالات توتر مثلما قد تدفعها إلى تحقيق لحظات إشباع تشكّله ثقافة رقص وكأس وعناق مخمور يغيّب العقل الذي يحرض على الصحو والحذر، بينما سعادة اللحظة تحتاج لثمالة وحلم وأنشودة. كان سلاح الرسام ألوانا جديدة مبتكرة وممزوجة، وكان سلاح الأنثى رسالة عطر ساحرة تتنوّع أشكاله ومواضعه. يوم امتزجا، اللون والعطر، اكتشفا بأن المهمة أصبحت أعقَد، مثلما أصبحتْ العلاقة أعقَد كذلك.

هكذا لم تكتف ماري روز بوضع عطر واحد لأنه لا يفي بالمهمة في الاكتشاف وفي اللقاء الواحد. لم ترقها العودة إليه بأثر رائحة ليوم سابق. لم تكن هي زوجة نابوليون بونابارت الذي طلب منها الإمبراطور أن تبقى برائحتها حتى مجيئه، حتى انغماسه فيها. كانت الكولونيا المختارة بساط سحاب تعبر به من الباب إلى الباب. يستقبلها به الفضاء المرسمي الذي تخترقه هاجمة على خشونة أشيائه وروائحها المختبرية. ولأن السحاب سرعان ما ينقشع، كان الجيد ينوب عنها كما الصدر في تقارب الجسدين في حوار أو قرع

كأسين أو تبادل متلاقح للبسمات والقبل. وأي عطر سيكون أقوى هو الذي سيكون المناسب لتعرية الصورة مثلما يتعرى جسدها في تشكيل لوحة جديدة.

! O mon Dieu

. أحتاج لعونك في هذا التحدي وهذه المعارك المتجددة، أن تمدّيني بالمزج المناسب كما بالرسم المناسب خلال مراحله الثلاث المتفق عليها. هكذا يهمس رسامها العاشق ويليام مستنجدًا.

ماري روز داخل ماري لويز. هكذا افتتن بالتشبيه والانصهار القائم بين جسدها وبين إطار اللوحة التي ستحتضن هيأتها وجسدها وعينيها .الإطار الذي يتضمّنها. تتذكّر بأن الفيلا المجاورة لها تسمّى بتسمية ماريا لويز، و التي هي فيها تسميتها ماري روز. تشتعل غيرة الحروف والأسماء، لكن مسحة بأناملها على إطارات اللوحات المرسومة يشعرها بامتلاك اللحظة والأشياء، فتكون ماري روز ملِكة كل شيء وكل شعور وكل كأس ورقص وعزف.

المانييتوفون وهو يصدح بأصوات فاتنة كإديث بياف أو ليو فيري أو بآخِر ما تم تسجيله في تلك الفترة من سنة 1954 لجورج براسان les sabots d-Hélène، يرافق جسدها في تمسحه باللوحات وتعريجات الخشب المزين للأرائك ومصاعد الدرج والطاولات. أنثى تثير الأشياء علّها تتفجر شهوة أو على الأقل تدرك هي، كأشياء، أن هناك أنثى مملوءة بالحياة وتحتاج إلى من يرويها بها. هي لحظات اليومي التي تختلط فيها الحكمة مع الجنون، فيكون الطقس خاصا ومشروعا لصاحبته.

(لوحة دامية)

*

ماذا تبقى من أثاث وديكور فيلا ماري روز إذا ؟

عندما هدّم الروهاني هذه الجدران السرية التي تفصل عوالم الفيلا إلى ثلاثة تقريبا، باستثناء العالم الخارجي للحديقة وما حولها أو في دائرتها من مرافق المدينة القريبة والملتصقة بالبناية، اكتشف مزيدا من أسرار حياتها وفكّك رموزا تضمنتها كتاباتها، يراها ماثلة أمامه في كل هذه الأشياء ومرافق هذه البناية المركبة من غرف وبهو وطابقين، سفلي وعلوي، إلى جانب القبو.

لكن هذا الاكتشاف جاء بعد دهشة وصدمةِ ما رأى وما انفعل به وبسببه هائجا صارخا ومتذمّرا.

لأول مرة سيتحوّل الصرع عند الروهاني إلى فعل عنيف خارجي في سلوكه أراده وتهيّأ له بغضبه ونقمته. وكأن الكلمات التي تعثّرت في الوصف أرقته وجعلت عينيه جمرتين اشتعلتا بشرارة النار الداخلية. ذكرى أب الكنيسة الذي تحرّش بجسده في وضعيات تقييده. تلك الليلة المعتمة إلا من قمر باهت في السماء، والتي جعلتْه في حالة

انهيار من نوبتِه وقد تملّكتْه امرأة غريبة فمارست عليه شهوتها ولم تترك له فرصة الشعور بمتعتها لأن الألم الداخلي والعصبي كان أقوى من الوعي بها أو التلذذ بطعمها.

الروهاني، شخصية الألم وتاريخ التهديد للذات ووجودها، المنبوذ من طرف الجميع إلا من هامش العيش على فتات الناس، يقف أمام صورةٍ ومشهدٍ وحشيَيْن تجلّيا في عملية اغتصاب يمارسها شخص طويل على طفل قاصر. الفضاء: هذه الغرفة المغلقة والمخبأة خلف جدارٍ، ما كان فيما مضى من عصر الفيلا الذهبي غرفةَ نوم لزوجين هما ماري روز و بيير دوفيرمان. صراخ الطفل واستنجاده وهو في حالة يرثى لها من جراء عمليات التعنيف واللكم والدم الذي يلوث ثيابه كما جسده ودُبره. الكلام البذيء والسب والتهديد بالقتل والذبح الذي يصدر عن هذا المتعسف على كرامة طفل...

كلها مشاهد للنفس كما للعين لم تحتَجْ إلى وقفة تأمل طويلة. عصاه التي يمسكها وقد هوت على المغتصِب فهشّمت رأسه حتى تطاير الدم قطرات ثم رشات حمراء شكلّت بقعا ونقاطا على الأرضية كما على الجدار ووجه الروهاني. لم تكفِه الضربة الأولى بل زادها عددا تجاوز العشرات بدرجة لهاث وسعار ونوبة هيجان الروهاني.

كان في حاجة إلى هذا الإهراق للدم. لم يكن قربانا بقدر ما كان نسفا لقوى شرٍّ لطالما امتلكته وتلاعبت بجسده ونفسيته كما هدّدت توازنه وصحته وحياته. لطم خدّه ثم وجهه، وكأنه يلطم حظه التعس في الحياة. رست نقطة دم من شلال الشرارة والشر فوق شفته العليا وإطارها، وكأنها تختبر ضعفه من قوته، حكمته من جنونه. لم يدرك نوعها. بادر لسانه إلى تذوقها فتفلها. لم تكن مثل

دم ذلك الأرنب الذي استلذ بتجرعه ساخنا. وكأن روح هذا الحيوان الصغير جاءت لتنتقم منه في مشهد الدم والاغتصاب والقتل. التفت ليرى ذلك الطفل المنهار. عيناه وقد انقلبتا فلم يعد يظهر منهما سوى بياضهما. رغوة بيضاء وقد انفلتت من فمه. دم أحمر قانٍ وقد وقّع على جراحه وآلامه. لكزه بعصاه، ثم جعل سبابته تجس خدّه في بحث عن نفس وتنفس وحياة. مات الجاني والمجني عليه. أي حلّ وأي ورطة تخبّط فيها الروهاني؟ لا قانون له سوى قراره فيما سيفعله الآن. هل سيفر وينسحب تاركا الجثتين؟ أم إنه سيتدبر أمرهما بطريقة ما؟

ما سبق من حياته كان فرارا في فرار. كان شبحا يمتلك ظله فيسحره بلعبته المرعبة في محاولة القبض عليه سرابا مخيفا. شهق من جديد. تراءت له صورة فأر تلاعب به هر كبير. دحرجه ألما وتلذذا بين أمل النجاة وقبضة المخالب التي يتقرر معها متى يُجعل له حتفا وإعداما وإهراقا لدمه وإزهاقا لروحه.

التفت إلى بوابة نجاته. فتحة الجدار المشروخ. لكن إلى أين؟ لأول مرة ربما وقف يراجع ما فات من حياته إذا. إلى أين؟

نظر إلى محيط الغرفة ولاحظ الشرخ الآخر الذي يؤدي إلى مرافق الطابق العلوي من فيلا ماري روز، كما لاحظ لوحة باهتة الألوان التي تتوسط الحائط داخل هذه الغرفة والتي تشبه صورة ماري روز التي اطلع عليها في مذكراتها التي تركتها في القبو. كانت حلما وكلمات، الآن ها هي صورة كبيرة وبألوان أفضل وبلمسات رسام جعلها خالدة في جمالها رغم تقادم اللوحة والرطوبة والغبار، ما أتلف بهاءها ونضارتها. صرخ:

.هي. (طوا). TOI.

أجاب نفسه معرّفا بها أمامها:

.الروهاني. بُّوتي جون.

تقدم بخطوتين يلمس ثوب اللوحة. لاحظ دما يلطخ كفّه وأصابعه، مسحه على أطراف أسماله. تلمّس بشرتها الوردية. تشمّم رائحتها علّها تبعث أنوثتها ورائحة العطر التي فاحت بها صفحات المذكرة فتخترقه بما شعر به تجاهها. تعرّق دون أن يدرك ما يقع وسببه وما هو. صخبٌ في الخارج، من خارج فتحة الجدار المؤدية إلى ممرات الطابق العلوي. أطل من شق الجدار الضيق، كانت هناك أبواب مفتوحة ومكسورة وكانت هناك أشعة نور ترافقها أصوات سيارات وأطفال وراشدين. لكْنَتُهم وطريقتُهم في الكلام تدل على غرابةٍ ما، غير طبيعية.

ثلاثة عوالم هي. القبو والغرفة والطابقان السفلي والعلوي. لحدود اللحظة امتلك باكتشافه العالمين الأولين. تُرى ما أسرار الثالث؟ زمجر وزفر وقطب. لا يبشر بخير هو الآخر هذا الطابق العلوي الذي يبدو درجه المؤدي إليه ملتويا مثل أفعى ضخمة بسطت جلدها الأملس!

أصبحت العلاقة وطيدة بين الدم والعطر. أصبح السحر نذير شؤم ربما، أو ما يقود إلى غرق جديد في روح المشتهاة لوحة وعطرا ومذكرات...

*

لأول مرة يطل الروهاني على القبو من زاوية أعلى. مثلما هناك درج نازل من هذه الغرفة، هناك درج صاعد إلى جهة جدار آخر مبلط بإسمنت أسود. رفوف وقد تقادمت، أشياء جديدة وقد بدت أهميتها وقيمتها ووظيفتها. فتحة النور التي تسللت هي الأخرى مع الاكتشاف والاختراق الجديد أبانت عن صورة جديدة للقبو، لن تكون جميلة طبعا. جثتان ملقيتان فوق الأرض. بقيت جثة الطفل شبه متكئة على جدار الاغتصاب ورجلاها ممدودتان. ظهره وقد تقوّس كأنه ينتظر من يسوّي له جلستَه. أمّا ذلك النحيف الطويل المغتصب، كان رَمْيُ جثته بقوة قد جعلها منفجرة ومحدثة التصاقا لبطنه وخدّه مع بساط قديم اختلط مع الغبار الرمادي المتراكم فوق الأرض.

رأى عُدّة مجرفة ومعول ولوازم بستنة مركونة في زاوية من القبو. كانت الصورة واضحة ودافعة للإقدام على فعل فطري تعلّمه في دروس الكنيسة، ورآه في مقابر المسلمين التي كان يلجأ إليها مبيتا أو استراحة من عيون الأنام.

نزل الدرج وأخذ فأسا. هام في الأمر. نظر فوق السطح المترب بالغبار كأنه يبحث عن فكرة منفلتة ما. لاحظ خطا مستقيما ماثلا

أمامه. كانت المسافة بينه وبين الجدار مترا تقريبا. نقش على الخط فاكتشف على أنه باب مُنزَّل أفقيا فوق الأرض. اقتلع جنباته فإذا بانتفاضة غبار أبيض تتصاعد مع هزّتِه الأولى التي حرّكتْه من سبات زمني طويل. صدى صوتٍ غار من جديد تحته. بحدسه خبر وجود حفرة أو نفق آخر أو درج جديد. اقتلع الباب واحتاج لكلتا يديه لكي يجعله متكئا على الحائط. فعلا كان بابا محكم الصنع والتركيب.

نظر أسفل فإذا هو هيكل عظمي ممددٌ. بقايا شعر أحمر. قلادة ذهبية تظهر منها واسطتها المستديرة كشمس مرصعة. يبدو أنها استراحت من عنق تلاشى لحمه لتنبسط فوق الأرضية الحجرية. اندهش فاغرا فاه. صرخَ: .أنتِ، !TOI !

فعلا هي. ماري روز. نفس القلادة التي توجد في الصورة كما في اللوحة. وكأنه اغْتُصِب في حلم جديد. كأنه سرِقَ منه أمل عيش فوق سحاب مع ماري روز. كانت ستعوّضه عن الأخوات اللاتي لم يحظ بهن إلا كمربيات ومعالجات ومستغربات من حالاتِه المرضية. على من سيفجّر غضبه الجديد ؟

ترك الجثتين في وضعهما ونزل يتفحّص الهيكل العظمي. نزع القلادة من بين الفقرات العنقية. فصلت الترقوة عن الرأس محتفظة بواحدة، وكأنها تنتزع توقيعا ما. لمس العظام التي كانت باردة. رائحة غريبة تعم هذا الصندوق الحجري. لكن صندوقا خشبيا صغيرا ملقى بجنبه ومغلق بقفل صدئ تنازعت ألوانه بين البني والرمادي والأسود. كلها مقززة وغير مستبشرة. أخذ الصندوق وعاد

بخطو إلى أعلى، متكئا على مرفقه ضامّا له إلى صدره. استعاد نفَسَه مفكّرا ومكتشفا ومدبّرا لما سيأتي.

أصبحت حمولته مشكلة من صندوقين بدل واحد، إضافة إلى رزمة ثيابه وعصاه.

رمى الجثتين في ما يشكل حفرة أو قبرا، وأعاد غلق الباب الخشبي بإحكام صعبٍ حالَ دون سهولته تآكلُ بعض جنباته واقتلاع بعض شظاياه. لكنه اتخذ مقامه الأول. مسح برجله على الغبار لكي يغطي ذلك الخط الفاصل. وقبل أن يفتح الصندوق الجديد اخترقه صوت بعيد تسلّل مع الشروخ التي بصمها النور المنفلت من عوالم علوية دون هذا القبو. عاد ليرمم الفتحات ويغلقها ما أمكن حتى لا يفكر أحد في التسلل بين شروخها. بقي ساكنا دون حركة لدقيقتين أو أكثر. احتاج فعله لتركيز كبير. شخّص بصره مع هذه المقارنة الجديدة، بين عالم قبو امتلكه بفضائه، وعالم أصوات ونور هو حياة تعاش فوق، خارج هذه الفيلا: فيلا ماري روز.

ربما لم يأت التساؤل في الوقت المناسب لكي يستفهم حول ما يجري، وكيف يمكنه اكتشاف واختراق هذا الذي يجري نورا وصخبا جديدين. لكنه وقّع بصمته وترك أثره في ذهنه. ليست اللحظة مناسبة لاستكشافه.

كانت غنيمته التي تأبّطها هي هذا الصندوق المنضاف. لكنها غنيمة جاءت بعد دفن جثتين واكتشاف أخرى. ازدحمت الأفكار والمشاعر والمواقف، فلم تستبِن أية منها في تلك اللحظة. كان الخلاء والطبيعة ومجرى النفق للوصول إليهما هو حلّه الوحيد وتفكيره

الوحيد الذي صمّم له ونفّذه.

*

حينما يستشعر الإنسان أنه ارتكب فعلا شنيعا غير عاديٍّ تأتيه الغرابة من ذاته ومن دائرة المحيط الذي يوجد فيه. تاه الروهاني من جديد في مسالك الطبيعة وأدغال الأشجار وشعابها. حضرتْه قصة أخوين، أحدهما قتل الآخر، ندم على فعلته، جاء الغراب وعلّمه درس الدفن. تصاعد صدى أصوات كنسية غلب عليه إنشاد الأخوات. ساد الصمت في محيطه، والليل في سكونه، والصندوق بجانبه لم يفتَح بعدُ، وكأن طقس فتحه ينتظر اكتمال البدر في علياء السماء. ربما ضياؤه سيساعد على تفحّص الأشياء الموجودة فيه. تعود له أسماء بلغتها الكنسية: كايين، آبيل. قتل الأخ لأخيه. يزفر بصوت وحشي لا يفرز الحروف. في ذهنه يرفض معادلة المقارنة مع ما ارتكبه من قتل. لقد أراد تخليص الطفل من مخالب وحش. قصدُه إنقاذٌ. رفع بصره إلى السماء فوجد البدر يطّل عليه وكأنه أتى يحاوره ويؤنسه في هذا الليل الغريب. برقت عيناه للمعانه في الأعلى، ولدواخله التي شعر فيها بحرمان من اجتماع وعيش عادي بين بني البشر. ما تزال رفقة الجيلالي بوجنان حاضرة بأصواتها

وجذبها. وصوتُه يعلو عارجا إلى أعلى: الله يا مولانا، الله الله يا الله مولانا، حالي ما يخفاك يا الواحد ربي.

ينظر إلى ذراعه الأيمن المفتول، وإلى شعره الذي انسدل حتى منتصف ساعده والذي اختلط ببياض كثيف. لقد عاش سنين طويلة في هذه الحال. كان فصل الشتاء هو الأقسى عليه. أما فصل الصيف فكان ليله أرحم، وبينهما كأن حاله لا يريد البحث عن جواب وتحليل. يغور الفهم في جهل القدر الماضي والآتي، أما الحاضر فهو هذا الشعور وهذا الحال.

ارتكاب جريمة قتل أعاد له مساءلة ذاته حول ما قام به في صغره وهو طفل أو صبي. استجمع الخيوط التي بدت خلال هذه الأحداث الأخيرة. كان تلمّس الأب لمؤخّرته وهو في حالة الصرع والنوبة الشديدة، التي يزيدها الفزع الرهيب اشتدادا لا يشعر به إلا هو، شرارة جعلت يديه تخنقان أقرب عنق تحيطان به. وكأن الخنق والقتل غريزة في الإنسان قد يقوم بها دون أن يشعر. يتذكر ضغيب الأرنب وهو في قبضته وفتكه.

يحتاج إلى تمدد ونوم. عيناه مفتوحتان على سقف السماء وعلى نجومه وبدره المائل. ليتَهُ كان بجوار من يتكلم معه ويحاوره. يمدد أصابعه مع التراب فتصطدم بصلابة باردة. إنه الصندوق الجديد الذي وضعه بجانبه. بين نوم ويقظة، احتضنه وأجّل فتحه. حنين اللوحة والصورة، شحوب ألوانها التي قرّبت المرسومة أكثر إلى ذهنه وتصورّه. كان يعرفها من خلال شذرات تلك المذكرة التي تفاعل معها، وتلك الصورة الصغيرة الباهتة في الصندوق السابق،

الآن يعرفها أكثر من خلال اللوحة. هل هي حية داخلها ؟ وهل يمكنها أن تكون موجودة داخل هذا الصندوق الذي بجانبه ؟ حتى إذا ما فتحه انبعثت جسدا يحييه أو يراقصه كما تلك المرأة الشبح في حوض الساقية ؟ أي اشتهاء سيكون أفضل وقد أخذ النوم يسدل ستائر جفونه ليرحل إلى حين ؟

*

(الحاجة الميلودية)

حينما اختارت الحاجة الميلودية خدمة الضريح، ضريح (مول الما)، كان قرارها صعبا. حاولت النسيان، لكن النسيان اختار قِناعا آخر لكي يجعلها تتذكر ما تريد نسيانه.

صاحَبَها الأرق. لم تعد تستطيع النوم. لم تشفع لها زياراتها لبعض الأولياء الصالحين، ولا المسكنات التي وصفها لها طبيب المستوصف العمومي الذي يداوم الخدمة الليلية في خضم ذلك الأسبوع من اشتداد حالها ومعاناتها.

حينما نصحتها جارتها الجديدة، الآتية من دوار آيت شرن، بأن تزور ضريح سيدي (مول الما)، ضحكت للفكرة كما لتعَب جفونها، واستسلمت في يأس لتِيه جديد، لبّتْ فيه طلب جارتها. اعتبرت مدة الثمان عشرة سنة التي مرت على حجها، والسبع والعشرين التي مرت على عومها في حوض سيدي مول الما ـ ذات ليلة معتمة إلا من طيفٍ عكسته النجوم مع الماء ـ مرحلة غابرة وبعيدة، وعهدا لا تنتسب له شخصيتُها الجديدة: الحاجة الميلودية أم بوشعيب وجدّة أولاده الأربعة.

استغربت لحالة النسيان التي بدأت تظهر مع قلة نومها. انفلات المعلومات والذكريات. شرود عن اللحظة ووعي مكانها أو زمانها...

أصبح ذهنها مركزّا على صوت الماء وارتجاجه وهدير غدرانه. وكأنه نداء أوحد سينقذ حياتها وسيخرجها من عالم الكوابيس الذي لن يؤدّي إلا إلى حمق وجنون. ربما اختارت التيه وفقدان الذاكرة على حالتها الصعبة والموجعة الجديدة. ربما اختارت الموت، لكنه قرار صعب ومروع. أيكون التيه والانفلات من المحيط هو الحلّ؟ جعل قطيعة مع الماضي وأناسه؟ كل من يستطيعون فضح أسراره؟ الهروب من الجميع إلى لا أدرية مجهولة؟

اندهشت لاكتشافها المتجدد والمتطور. سيدي مول الما، ضريحٌ بثلاثة جدران دون ذلك الرابع المبني بالماء والهواء، والمفتوح على جريان الساقية الكبيرة المنعرجة من نهر سبو العظيم. لا يستطيع سيدي مول الما أن ينام دون رؤية وسماع، ودون معانقة جريان الماء فيه وأمامه. جربوا الجدار الرابع كم من مرة، وكان كل مرة يهدمه القدر أو يتهدّمه. يتركهم حتى الانتهاء من ورشتهم، ويتكفل هو والنهر معه والفيضانُ مرافقُه بحملة دكّ ذلك الجدار وجرفه.

في المرة الأخيرة كانت اللعنة قد أصابت البنّاء الذي آمن بمنطق الهندسة والبناء، ورفض أساطير الأولين. انقلبت به الشاحنة وهو في طريق عودته إلى القرية القريبة التي يسكن بها، قرية آيت شرن، والتي ربطت الحدث باللعنة، واستسلمت لقدر سيدي مول الما. من ساعتها أصبحت معجزة الضريح بتخريجاتهم وتوظيفاتهم لأشكال تخصصات الضريح في الحل والشفاء والعلاج والخلاص. خدمةً، أصبحوا حفدة لها، والحفدة بشجرة، والمهام بين برٍّ ونهر، بين تراب وماء. بين حناء ودخان وبخار واستحمام، بين نجاسة الدنيا وطهارة المقام. طقوسٌ تفنّنوا في تطويرها حتى ضاهت وفاقت ما يراه الزائر لتلك المماثلة ل(لالة عيشة البحرية)، أو (سيدي

بوشعيب)، أو (سيدي علي بن حمدوش). لأول مرة يرون البركة في الجدار الممتنع عن البناء، أَلِفوا سماع رفض بعض الأولياء الموتى، وما هم بموتى، بناية سقف أو قبة لضريحهم، وكأن هؤلاء يطلبون بقاء صلتهم بالسماء مفتوحة عارية من كل الحواجز ومعانقة لكل الفصول ولأكثرها سباحة في عيون الفضاء. لكن، هذا الولي الجديد الذي جعل بركته وسحر معجزته في انفتاح على مجرى النهر وقبله الساقية التي كثُرتْ طقوسها عند زائريه، أي تفسير ممكن سيكون لكل ما يقع فيه ومعه؟! تعجّبٌ تركَهُ جلّهم كسؤال مستغرب ومفتوح هو الآخر على ممارسة طقوسه الجديدة.

وكان المقام والخدمة للمانح أكثر، والواهب أكثر، والمستسلم أكثر. كانت الحاجة الميلودية التي شهدت ميلاد طقس سيدي مول الما، مندهشة في سرٍّ للتطور الذي شهده الضريح. طريق مزفت ومعبدٌ حتى منحدر الضريح، والذي لا ينعم به حتى الدوار الأصلي الذي عاشت فيه في البداية قبل أن تنتقل كحاجة إلى المدينة القريبة وتعيش فيها.

ها هي الآن، بدانتُها وقد اكتملت، ووِشومها مستديرة على رسغيها وعلى عنقها، وخواتم ذهبية ترصّع أصابع يديها. أتت بذبيحة وأكرمت الخدم الذي سيوفر لها زاوية للإقامة داخل مقام الضريح الذي لم يكن به قبر، فقط شاهد من شباك خشبي بنّيِّ اللون داكنه، يتشكل كقيثارة سومرية قديمة، منحدر الأوتار جهة النهر، وكأن القبر ماء أو في حوض ماء.

تخيّلت الحاجة الميلودية الضريح الهامد في الحوض. تعرّقت لاستحضار ظنّ الجثة الهامدة بعد تلك الليلة المشهودة، اعتراها

شعور بالذنب في كونها سبب موته وتحوّله إلى ضريح. لم تأت لأجل هذا، لكنها ستحاول أن تتصالح معه، أن تقدم له القرابين، أن تهب له الدعوات والصلوات والزكوات التي تستطيع، عساه يرفع عنها لعنة الأرق وعذاب الضغط اللعين. حرمها من لذات كبيرة في مناسبات عديدة بسبب غيابه بعد تلك الليلة الراقصة فوق الماء. لم تشعر بمثل ذلك الانتشاء وبمثل درجته فيما لحِقه من فرص اشتهاء وواجب شرعي في البناء والجماع. لم تبُح لأيٍّ كان بكل هذا. هي تعلم بأن الخط الأحمر يرتسم مع مثل هذه المواضيع. تعلم بالألفاظ والصور والمجاز الذي ينوب عن واقع الحال فيستره في الكلام ولا يجعله ينفلت. لكن الانفلات وقد اجترحت به في حالها فلم يعدْ لها نوم طبيعي ولا تلبية غريزة بشكل عادي معه.

ها هي جالسة في قرفصاء. الإزار الحائطي المزين بأشكال أقواس عمودية خضراء وحمراء، ينسدل وراء ظهرها وَبَرِيًا رطبا. فتحة الجدار الرابع هواء وماء وعشب وأفق أجمات قصب وشجر دفلى وتلة صغيرة تشكل ضفة أخرى، تحجب ما وراء الأفق البعيد لكنها لا تحجب النهر المارّ بهديره وتموجاته.

أشكال خِرق بالية وتبابين بألوان شاحبة عالقة بفروع الأغصان. شموع تقاوم بفتيلها اتجاهات الريح المتضاربة والمتعاكسة، تبكي حظ الزمان والإنسان، لتستسلم في النهاية لقدر تشكيل طبقات كلسية بصمغ ذائب متجمد.

افترشت الحاجة الميلودية بساطا غليظا ودثرت ركبتيها في قرفصائها بغطاء أحمر. قارورة ماء بجانبها وسبحتها التي لا تفارق أناملها في تدحرج بين الحبيبات البيضاء. ماذا لو ارتمت في الماء ليلا؟ ماذا لو

نهض الولي من مائه فأغرقها في مائه؟ ترجّت خدمة الضريح بهرق دم القرابين مع مجرى ساقيته وفي الحوض المنعرج عنها. سنّتْ طقسها فجعلت قربانا لكل نصف يوم. واحد وقت الضحى، والآخر قبيل الغروب بقليل.

اندهش الحضور لهذه النية الكبيرة الحاضرة عند الحاجة، ولهذا الكرم الضخم الذي لم يُبدِه أي شخص من قبل له. ولا تطلب هي شيئا سوى النوم والراحة والهدوء للأعصاب ليلا. وطبعا سيتكفل (سيدي مول الما) بالعلاج وربما بالنسيان أو فقدان الذاكرة الموجعة. سيجعل الماء يخترق الذهن لكي يخلد لراحة الدنيا قبل الآخرة. وكأن النسيان قد نسي. مرت ثلاثة أيام على الحال، بدت أعراض تحسن رغم ضعف ساعات الغفو والسبات. كان الصمت الذي يطبق الليل هو بوابة اختراق خرير المياه لجهاز أعصاب الحاجة الميلودية الذي يختزن الزمن والحدث والحقب التاريخية للمكان ولأصحابه ولروحها الشقية التي تبحث عن سعادة العودة للهناء.

منذ وفاة زوجها قبل خمس سنوات، اختلطت على الحاجة دواعي الوجود والاستمرار في الحياة. كَمْ من مرة ومرات، جاءها مول الما قبل الأرق ليزورها ليلاً. ترجّته في البقاء مثلما ترجّته في أن يتركها في حالها. لم يتوافق الحلم مع الرؤيا، ولا الجسد مع الروح.

ها هي هنا والآن تطلب شفاعة جديدة مباشرة. لعلها لعْنَتُه التي قادتْها إلى حوضه:

.أنا مْزاوگّة• يا سيدي ربي. أنا في حماك آ سيدي مول الما. ما نويت حراما، ما نويت غرقا أو جريمة.

تهذي وتهذي. في لحظات تبدو وكأنها تغني وتردد أغنية شعبية. يغيب الصوت ثم سرعان ما يطفو على سطح الآذان المحيطة:

.واهيا مول الما، أنت مزوجة بمول الما...

لازمة معبّرة جعلت السامع يلاحظ اعتكاف الحاجة ووهب حريتها لهذا الفضاء، لضريح مول الما. مهمة الخدم حراسة محيطها من تسلل ضفادع أو أفاعٍ مائية أو أشخاص غرباء غرابة المكان. أما حلول مول الما، فذلك منشود الجميع منذ آخر صرخة سُمعت حين رؤية إطلالته بين الشعاب ثم ضموره كبدرٍ غاب وراء جبل الليل.

•ـ مترجية وطالبة الحماية والنجاة.

*

أتاها في نومها، حلم متجمّعٌ ومختزن لحكايتها الجديدة. رحّبَتْ به وشعُرت بندائها عليه. اغتبطت لمستوى القرابين والأمان الذي بدأ يعم وجدانها. كان حنشا أدهم. تخبر بحكم بدويتها الأولى أنه ليس بسامّ. تراه من فوهة الجدران التي تستضيف الماء. أتى فوق تموجاته الصغيرة التي تتدافع وهو يتهادى في شكل هندسي مهلل. تحوّل لونه من أسود إلى أخضر. انبسط مستكينا أمامها. مسّدت عليه ومسحت رأسه بكفها. فتحتْ رجليها وتركتْه يتسلل بين فتحات سروالها الطويل والقصير. لم تكن في حاجة إلى فك حزامها الذي يمنع نقودها وحليها الصغيرة من السقوط .كانت خزنتها في انسداد فتحات أثوابها ـ شعرت بدفء بَلّلَ حجرها فغمغمت مترنحة كحيّة تلقتْ مصلها الفريد. انساب الحنش ماء وتحلّل بخضرته ليصبح لونه زجاجيا سرعان ما جرى تيارا متلألئا مع الساقية التي لا تنفك من هديرها الجميل.

حينما فتحت عينيها، استشعرت احتلامها. منذ مدة، وربما منذ وفاة زوجها، لم تأتها هذه الحالة. هذه المرة كانت هذه الحالة حلما واحتلاما دقيقين ومستوعَبين في الذاكرة، وكأنها عاشتهما حلم يقظة، أو كأنهما واقعة حقيقية جميلة ومرغوبة. جسدها الذي تصبب بعرق خفيف التصقت بعض جنباته بالأثواب الداخلية.

سيساعد هذا الجو الربيعي البهيج على الاستحمام قبل أذان الفجر الجديد.

لا زرقة في الأفق، لكن صياح ديكة موزعة هنا وهناك يبشّر به. تحمد الله وتستغفره. لو لم يكن هذا الصياح لظنت الحاجّة أن ما رأته في منامها شؤم. لكن صوت الديك نداء ملائكي للصلاة، عكس نهيق الحمير الذي يسترقه الشيطان اللعين. قامت وجعلت إزارا بينها وبين مدخل المقام. جالسة على حافة الماء الذي يأكل كل مرة من الأرضية المبلطة بالأسمنت. نزعت لباسها ببطء وحذر شديدين. كل مرة تتوقف لتستمع لكل متربص قد يسترق لحظات طهارتها تجسسا. اغتسلت فوق ثيابها الداخلية واضطرت لتمرر بخرقة الصابون تحتها حتى تصل إلى إبطيها وعانتها وثنايا بطنها المتمنعة عن الماء.

يبدو أن مول الما وهبها ليلتها المنتظرة. ستنام الحاجة الميلودية في سبات عميق بعد معاناة طويلة لم ينفع معها طب ولا أي شيء آخر. ترحمّت على زوجها بعد أن أدّت صلاتها جالسة وأغمضت جفنيها لكي تمسح أي تفاصيل للحلم. اليقظة ولاحتلامٍ رفِع عنه القلم فلم يسجل أو يدون ما وقع فيه في صحف الأعمال لتلك الليلة قبل أن ترفعه الملائكة سجلا للسماء. وكانت صلاة الفجر طهارة كبرى للروح وشفاعة لسجل الحساب.

في الصباح، خالفت عادتَها في الاستيقاظ الموعود قبل أن تصل أشعة الشمس لشباك الضريح الخشبي. مجرى الماء كان قويا لدرجة حجَبَ عن سمعها كل اختراقات الأصوات الثانوية إلا ما كان من أثاث نومها الجديد. زحزح خادم الضريح جنبات صينية الأواني

الرابضة بقربها. استلقت بعد قرفصاء لَمْلَمَتْها من قشعريرة صباحية ربيعية. ارتاح (الشيخ البْريدي) واطمأن لكون الروح ما تزال تسري في هذا الجسد المضاف لزوار ومقيمي سيدي مول الما.

منذ مدة لم يزر السيد البريدي أهلَه. يسكنون في جبل بعيد. كان الصيف الماضي قاسيا عليهم. جفاف ماء وبُعد عن أقرب منبع يسقون منه كفايتهم وحاجتهم. حينما سمع بالصراع الدموي الذي قام بين قبيلتين حول الماء، حمد الله على جنة هذا المقام الذي آواه واحتضن رزقه ونعمه الجديدة. وحينما يوفّر نقودا مناسبة، قد يبعثها أو يذهب بها إلى أهله كما فعل في الصيف الماضي.

قصير القامة نسبيا، مربوع بشكل يجعله ما يزال ممتلكا لعضلات وبنية متماسكة وقادرة على العمل اليومي الشاق. طاقيته ذات اللون الفستقي تميّزه عن الآخرين. غالبا ما يرتدي سروالا بفصالة تقليدية فضفاضة وقميصا كيفما اهتدى لارتدائه يكون منبسطا فوق صدره. يكثر من الذكر حينما يختلي بنفسه لكنه حذِر في كل خطوٍه وتواصله.

لمست أصابع رجله اليمنى ساق الحاجة. تراخت هي وتماهت مع رطوبتها، لكنها سرعان ما وخزها ظفر جارح منها، سرعان ما استجمعت أطرافها ونحنحت وصرخت:

.ما زال الصباح لم يأت بعد آ البريدي.

تجلت ابتسامته الدرداء التي لا تعترف إلا بناب أبيض بقي كشاهد أثري على فم امتلك يوما ما أسنانه. عيناه الغائرتان في جفونه، توقعان لغرابة الحكم على لونهما بين حمرة جمرات وسواد قطران

متقد. دائم النكاية والشكاية. دائم الصراخ بصوته الأعلى. يسمعه البعيد، ولو كان البريدي يكلم نفسه ويلومها. قد يظنون أنه يؤدي مسرحياته المفتعلة والمقصودة، لكنهم استأنسوا عادته واعتبروها من طباعه التي يجب عليهم أن يتقبّلوها. حافي القدمين. يرفض انتعال أي شيء في المقام وبين ضفافه وجنباته. كان البريدي مَن سَنّ عُرف الحفيان في الزيارة. وقد أخذ الناس ينزعون أحذيتهم لمسافة ليست بالقريبة حتى تكون زيارتهم فعلا لسيدي مول الما الذي لا يؤمن بخيط أو مخيط فبالأحرى بحذاء أو نعل. وكأنها بداية الإحرام، ولكل مقام طقوس إحرامه وطوافه. فضْلُ سيدي مول الما أنه جعل الاستحمام جزءا أساسيا ومن أولوياته.

. الربيع ندّى والماء أخذ معه الخضورة. وقت الضحى آ الحاجة الميلودية.

. ذاك الفروج الاكحل، راني حازماه بشرويطة خضرا. اذبحه واجعله غذاء للمساكين. أنا في حماك آ سيدي بوزبطة.

استغرب البريدي لنطقها بلقب (سيدي بوزبطة). لقبٌ لم تناد به (مول الما) منذ جاءت. تكون للنساء المستحمات بِركة يسهر السي البريدي على تسييجها بستائر من ثياب واقية من اختلاس النظر، إلا من حكامة حمايته لها بين أمر ونهي.

. تحتاجين للاستحمام هذا اليوم في البِركة لكي تكون هناك بَركة. لا يكفي الدم، لابد من الماء لغسل الذات.

*

استغرقت رحلة الجيلالي بوجنان قرابة عام ونصف، بين زيارته للشيخ الكامل وتبركِه بسيرته ومقامه، ثم ذهابه لجبل زرهون حيث سيدي علي بن حمدوش ومولاي إدريس، وبعدها قصد مدينة وزان حيث يرقد أولياء كثر. ثم كان الصعود شمالا لمولاي عبدالسلام بن مشيش في جبل العلم. كانت الرحلة اكتشافا و خوضا في عوالم الروح.

المشي راجلا عبادةُ شكرٍ عند السي الجيلالي. والشكر لا يكون إلا للخالق من طرف المخلوق. وبين ضريح وآخر تتخذ الطرق منعرجات للتواصل والاكتشاف. جديد الخلق والأنام. قدر الكشف والجذب والاختمار. (تقودني خطاي حيث يشاء الرحمن. أرفع بصري إلى السماء فيأخذني الريح والسحاب. يسافران بي قبل أي ظل أتركه ورائي).

تتوالى خواطر الجيلالي بوجنان وتنتظم داخل أبيات شعرية تطرب الوجدان. يختزن آلام الناس وسعاداتهم، سِيَرهم وأخلاقهم في ما يدوّنه لسانه عفويا ومنظوما. قد يستعين بنظم سيدي عبدالرحمن

المجذوب (سافر تعرف الناس و كبير القوم طيعه كبير الكرش والراس بنص فلس بيعه)، وقد يذكر بما قاله سيدي قدور العلمي (يوم مالح يوم حلو يوم زقوم يوم مستعدل بين الطيب والسلامة... وفي حفظ الغني القيوم والصباح يطلب من مولاه السلامة)، وغيرهما، فيكون حاله من حالهم، وروحه من روحهم، كلهم مستمرون في تناسخ وحلول.

قدر المجاذيب أن يستعين أحدهم بالآخر. لا يموت أحدهم ما دام حاضرا في جذب الآخر وترحاله وإنشاده وطلبه عبادةَ خالقه. وحيث كلامه لا يموت، فجذبه لا يموت كذلك. يستمر مع الأجيال. في عقل كل واحد منا . كما يقول سيدي بوجنان . يحيى بفضل الرحمن الآخرُ. لا يراه الناس العاديون. تناسخ أرواح متجدّد لا يتقنه ويخلص له إلا المجاذيب.

ينحدر الجيلالي بوجنان من الأقاليم الجنوبية ومن فقرٍ هجّر الأسرة إلى المدينة الكبيرة مراكش. وحيث الفقر تكون الحاجة مبرَّرة للكسب والتوفير. عاين اليتم في إخوته الأربعة وهو خامسهم. كان البكر الذي جعلته الأم لخدمة كتّاب وإمام يحفظ القرآن. نجا من تسول أسرته بين الشوارع والأزقة، لكنه اجترع مرارة الشعور وحرقته. ترك الدرس القرآني وانغمس في طقوس ساحة جامع الفنا وأجوائها الغرائبية. تنقّل بين الفرق الموسيقية وحفظ أذكارها ومقاماتها. كانت فرقة جيلالة هي المحبّبة عنده. وكان قائد المجموعة ملهمَه في مغامرة عيش جديدة. يلقنّه فلسفة عيش ويجعله منخرطا فيه كتجارب يجب عليه أن يمارسها. وما أحوج النفس للتأثر في مرحلة الشباب. كالأرض العطشى التي تعتبر أول

سقاية هي الإغاثة الكبرى. كذلك كانت نفسية الجيلالي. لم يكن فقيه الكُتّاب هو المؤثر في شخصيته، خصوصا وأنه تعامل معه بقساوة، وهدر طفولته في سخرة وترهيب. كان خاضعا خضوع المحكوم بإعدام لسجانه، ملبيا لأوامره بشرط عدم تنفيذ العقوبة عليه. لم يذق طعم الحياة وأمل السعادة فيها وتحقيق الشهوات سوى مع معلّمه في فرقة جيلالة. إنه المعلّم عبدالقادر الحصبي، المشهور في ساحة جامع الفنا، وصاحب الطريقة في الذكر والغناء. هو الذي جعل الجيلالي من المجاذيب، أو جعله يختار ويعيش حياتهم. هو الذي جعله يسكن في النوالة من قصب وسعف نخل، ويمقت كل بناية بحجر أو حديد. علّمه أن المادتين الصلبتين سبب الحروب والتطاحن، وسبب غرور الإنسان وقتله لأخيه الإنسان:

.نحن عباد الله، وهذه أرض الله الواسعة. انتماؤنا لهذا التراب الذي جئنا منه وإليه نعود. الدوام لله تعالى، والقليل من الناس من يبتعد عن غروره ويعترف بهذا.

علّمه أن التجوال والسفر سُنّة للشكر، وأن الخطو على الأقدام دليله. كل خطوة بتسبيحة وحمد واستغفار وشكر نعمة. إنه بحث عن الله الذي أبعدتنا نفسنا عنه. بحث عن رضاه الذي افتقدناه ونحن فقراء له.

هكذا سافرا معا. وحيثما حلّا أقاما حفلهما بالذكر والعزف على إيقاع جيلالة•. هكذا كانت تسميته التي نسي معها اسمه الأول. إنه

• - إيقاع جيلالة إيقاع موسيقي يعتمد بالأساس على آلتين هما القصبة أو الناي والبندير. آلتان ممتدتان قدما في التاريخ، لكن البعض يعتبر الطريقة صوفية ومنتسبة للصوفي

الجيلالي بوجنان. نسبه جيلالة وسكنه جنان أرض الله الواسعة. قد يستغرب الإنسان العادي حين رؤيتهما، لكنه يحتاج لمن يشرح له، فالنظرة الأولى والفرجة الموسيقية ورقصاتها لا تكفيان للتعرف عليهما. مات المعلّم، ولم يشأ الجيلالي أن يستبدله برفيق آخر. آثر أن يعيش تجربة يتم جديدة. ربما أراد النجاح فيما فشل فيه في صغره. لم يواجه يتمه الأول بوعي وتصدٍّ وتجاوز منتصر.

ها هو وقد حوّل اليتم إلى انتصار، والفقر والحرمان إلى افتقار. عوّض الجراح والخصاص بطلب الإله في الموسيقى والتجوال. كل أوصاف التهميش يقبلها ويعيش فيها. حتى إنه يجعلها أساسا لتعامل الناس معه. هو داخل دائرة بوهالة وجوالة وكدارة وكناوة وجيلالة وهوارة والمجاذيب وأصحاب الحال. وكلهم اتخذوا إيقاعات خاصة للجذب والرقص والسفر العارج إلى السماء... هذا قاموس الجيلالي بوجنان الذي يحتمي به من حرَق كل الشموس الأخرى. هذا ليله الذي يستعين بنجومه وبدره لكي يطفئ نيران الحرقة الداخلية المجهولة التي استوطنت أنفاسه فجعلته غريبا عن نفسه وعن العالم.

من سيسجل سيرة الجيلالي حتى يتعرف عليه الخلق؟ ومن سيعطيها القيمة والكرامة لشخصه فيحترمها ويحترمه كإنسان؟ سنجد دراسات ميدانية وقد دوّنت وسجلت وحاورت واستنتجت. سيكون حظ الجيلالي بوجنان، ربما دون أن يعلم أسير هذا الحكي المستفيد من محاوراته وأخباره. وسيكون حقه في التاريخ وقد تحقق ذكرا. ما عدا ذلك، فله أن يستمر في حياته ويواجه قدرياته.

الشهير سيدي عبدالقادر الجيلاني في القرن 12 الميلادي رغم اعتراض باحثين آخرين على هذا الانتساب.

له أن يخترق مسار صاحبه الذي حدس جزءا من روحه ونفسيته فيه: الروهاني الذي اقتطع جزءا من ذاته لكي يجعلها هائمة في غيب ما يقع له، ما لا يعلمه سوى الرحمن العلي القدير.

شكله لا يهمه، لكن روحه منه، حاضرة معه، هو وآخرون واخريات، من الذين واللواتي اخترن فلسفته وجذبته. طول أظافره واتساخها، أسماله وقد أصبحت مدهونة بطبقة سميكة بسبب اتساخها كذلك، جدائل شعره التي يغزوها قمل أو تعْلق بها بقايا تبن او تراب، نظرته التي قد يسحقها جوع أو مرض، كل هذا وذاك يهون ما دام هناك من يتقاسم معه صبره وشعوره وبحثه عن سعادة للروح خارج هذا الجسم المادي الفاني. لا ثقة في كل ما هو ملموس، ولا قيمة سوى لما هو روح في روح. وحياة الجيلالي بوجنان روح في روح، وسفر مستمر ودائم البحث عن العلا فوق هذه الأرض وتضاريسها.

*

في العودة من جبل العلَم مقام ضريح مولاي عبدالسلام بن مشيش، زار الجيلالي ضريح مولاي علي بن راشد بمدينة شفشاون، ثم أضرحة أتباعه الذين انتشروا جنوبا من جبله ومدينته وقصبته.

كانت السنة غزيرة الأمطار، وكانت السواقي تجذب الخلائق مع زهو فصل الربيع. وحيث يعم الخير تعم الحياة. هكذا كان قدر سيدي الجيلالي بوجنان في أن يتتبع مسالك جديدة خلال العودة. وكأنها عبادة جديدة فيها أجر جديد. عاد جنوبا حتى مجرى نهر سبو، سمع بالناس وهم يتكلمون عن سيدي مول الما. اندهش وارتعش. تساءل مع نفسه: مول الما؟ وما الماء سوى عرش الرحمن. أي سيد هذا الذي يمتلك الماء سوى الله تعالى. (وكان عرشه فوق الماء)، صدق الله العظيم.

سأل عن الطريق فاتخذ الضفاف المجاورة للنهر. اقترب بمسافة نصف يوم. استراح قرب ضيعة ممتدةٍ جنوبا دائما. سأل حراسها وخدمها عن ضريح سيدي مول الما، كلّموه عن كراماته. سألهم عمن يكون، حدثوه عن غرابته، حيث لا قبر ولا وجود لجثته. هل يكون جنيا؟

هكذا حكمة سفره وتجواله. البحث عن الجديد واكتشافه، ونشر فلسفته وتعريف الناس بها، والأهم، جعل سقاية الروح في الآتي

والجديد تواصلا وزمنا ومكانا وتجربة. هكذا فرح لاكتشافه الجديد فبحث عنه بكل شوق.

يؤمن الجيلالي بالجن، لكنه لا يؤمن بجعلهم أولياء على الإنس. يرفض هذا الاختلاط بين الثقلين. حتى مقام (سيدي شمهاروش) بالجبال الأطلسية المجاورة لمدينة مراكش، ملِك الجن، لا يريده لوظائفه القائمة. يعلم أنه حيث يحضر خلط الخِلقين يحضر السحر والشرك بالله تعالى. يستحضر آيات الذكر الحكيم فيرتّلها بطريقته التي تجعلها بإيقاع ونظم مطرب يليق بحضرة وجذب المجذوبين قبل غيرهم:

(وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) سورة الانعام، الآية 100.

يُتبِع الآية بلازمته الجذبية عشرات المرات: سبحان الدايم ربي، سبحانك يا إله جُدْ عليّ...

يستريح من نوبته الروحية والراقصة ويقرأ في هدوء استقرت فيه العينان نظرًا إلى التراب، وكأنه قرّر شيئًا معها:

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوا فذرهم وما يفترون)•.

• - سورة الأنعام، الآية 112.

لا أحد ممن أحاطوا به من خدام الضيعة التي جلس بجنباتها أدرك ما يفكّر فيه. واصل سيره بعد استراحة وهو عازم على قرار، ترجمه الخطو السريع كأنه تأخر عن موعد مهم ينتظره.

وصل ليلا، وكان عليه أن ينتظر الصباح. استغرب لعدوانيته الجديدة. قليلا ما كانت حالاته تتحول إلى مثل هذه المواقف. دائم البعد عن التجمعات، دائم الاكتفاء بحِكَمِ الكلام ونظم معانيه حيث يكون للفظ قوة تغيير في النفوس. يجلس الآن في الضفة الأخرى للنهر، مقابلا هذه البناية التي انتشر بجانبها عمران موزع بين غرف صغيرة ودكاكين وخيام مبعثرة وشبه مظلات من ثياب لا شكل هندسي يميزها سوى الأطياف التي تتراقص بخيالها من تحت عاكسة ضوء الشموع أو المصابيح الصغيرة.

ما يميز نظره هذا، ذلك الطريق المزفت الأسود الذي يشق متذبذبا خطّه الغائر بين الحقول والطريق الرئيسي والذي تعكسه أضواء المصابيح الموزعة على جانبيه كما ضوء النجوم والسماء، فيتميز بلونه عن لون التراب.

بعض أصوات مازجة بين تجارة وابتهالات. النهر عظيم وعبوره يحتاج لاستعمال قنطرةِ أقرب مدينة إليه وهي مدينة (مشرع بلقصيري) لأجل الوصول إليه. فرصة للنوم والارتياح من تعب الطريق ولنظم يبرر الآتي:

صباحكم بلا ما

كون الله عفا عليكم يا العْمّا

ليلكم شهود باتوا فايقين

تاكلوها بالحرام وتقولوا نعمه

شفت ف أرض الله الناس التايبين

وانتم خايضين ترفسوا ف الظلمه

ساير (الگُوال) الذي أخرجه من قرابه إيقاعَ كلامه المنظوم. سمعت الآذان صوته وانتبهت لحضوره. بينما رافق سمعه الداخلي أنين الناي وإيقاعه الذي تخزنه الذاكرة. دندنة تجعل الروح بصوتها المعبّر، والنفس بحواسها تفجر المشاعر والمكنون. صوت آلة الدف (الگُوال) المحمولة فوق كتفه والمعانِقة في رجّتها الإيقاعية بفعل الضرب عليها لصدره، يمتزج مع روحه في السفر فتكون سفينته التي يمتطيها لكي يعبُر إلى آفاق عالية وعميقة في آن. بقدر بُعْد الافتحاص بقدر عمق الاكتشاف داخل الذات.

إيقاع موسيقى جيلالة الذي يهتز له كيانه ويستطيع إيصاله إلى مقامات عالية تقربه من معشوقه ومبتغاه في الجذب مقام السدة العالية، منتهى العشق: الله الحبيب المحبوب. في آخر ليلةٍ جَمَعَتْه بالروهاني بجوار ضريح الشيخ الكامل، كانت حضرة جيلالة خلاصا للجسد من تجربة سابقة في الألم والعشق. ألم المعصية وعشق التوبة وتجديد القلب والإيمان. رافقه الألم في الطريق الذي أتى منه من بلاد الرحامنة المتموقعة جنوبا قرب مدينة مراكش. تلك المرأة التي شاهدها تستنجد بالله تعالى:

.يا ربي، يا ربي !

لم يسعفها النداء. لم يرحمها زوجها. نحرها من الوريد إلى الوريد. مسح سكينه من أحمر الدماء على ظهر ثوبها وجثتها. شاهد الجيلالي بوجنان ما وقع صامتا. لم يحرك ساكنا. بينما كان بعض أهل القرية مهرولا في فزع وبعضهم هاربا في هلع، كان الجيلالي متخذا مسافة نظر وتأمل. لم يطِلْ وقفته كثيرا. كفاه نداء استغاثتها استنتاجا وتجرعا. حمله معه عُدة في سفره اللامتناهي. عليه أن يخلّصها من عذابها رغم أنه يجهلها ويجهل من تكون ولماذا ذبحها زوجها. عليه أن ينقذها في روحها ويساعدها على تلبية ندائها واستجابة الله تعالى له.

استغفر الله تعالى. لا يعتبر نفسه شفيعا ولا قادرا على لعب ذلك الدور. لكن حدسه يدفعه لخوض تجربة التطهير ضمن رسالة السفر التي امتلكته فجعلت حياته سخرية عند الآخرين، لكنه لا يعيرها اهتماما، ولا تشكّل له مشكلا. هو المسافر إلى الله. هو الناظر إلى أخمص قدميه والمستغرب من عجيب هذا التراب الذي لا يريد خطوُه تخليصَه منه. هو الهارب في المكان والزمان، وظله الذي يتبعه يشتكي في كلل من هذا الترحال.

كانت تلك المرأة ضيفة عنده في مناسبات عديدة. صوت استنجادها طريق لاستحضارها. قد يستعير لها من عيون النساء اللائي فتنّه بحسنهن وجمالهن وكُحْلِهن الذي يرسم مفاتن نظرهن. قد يستعين بكل ما وخِزت به نفسه الضعيفة المشتاقة والراغبة في متعٍ مادية وغرائزية. كل هذا الخليط الذي قد يسحقه بمادة كيف أو جرعات صاهرة يبقي عمه وداخله هذه الضيفة مُرحّبا بها في الجذبة الجديدة. تخرج فجأة صرخة ناشز عن الإيقاع، محمولة بألم وجراح. قد لا يدري السامع سرّها لكنه يعلم انغراسها في ضلوع الصارخ بها. وهذا

المبهم آلام مشتركة أو موزعة بالتقسيط على الخلائق الهائمين في هذا الوجود.

استطاع أن يساعدها في ندائها خلال ليلة جذبة فيما مضى، كان الروهاني ضيفا فيها، لكنه جاهل بمضمونها. ها هو الجيلالي يستحضرها في مقام مول الما. أي ولي هذا الذي سيساعد الناس على التطهير وعلى الخلاص ؟

كان الجيلالي متخذا لأداة طربه فوق كتفيه هنا بضفة نهر سبو كما هناك بقرب ضريح الشيخ الكامل. وكأنهما لحظتان في واحدة، تجربتان في مقام حضرة واحدة. كلما تعمّق في إيقاع الگوال كلما استعادت قصبات الناي اقترابها بأصواتها ومقاماتها الموزعة من داخل أوردة شجرته الهوائية. اشتعل هدير الذات وبدأ الجسد في التمايل والحضرة، بدأ الرأس في دوامة الدوران التي ستقتلع كل الأشياء وكل الأفعال في زوبعة إعصار حلزوني صاعد في غيبوبة انصهار. تخيل القصبات وعازفيها وقد التصقت فواهاتها وفتحاتها بأذنيه. حيث تتقارب آلات العزف ويحتد نظمها داخل نقطة محورية للدائرة، داخل ثقب دوامة مبتلعة، وحيث الأجساد مشتاقة لتحقيق وصلٍ ما، عبْر هذا الطقس الجماعي الذي ينسي الذات من أجل هذه الطريق الموسيقية العازفة والهاربة من الأرض إلى السماء. بدأت قدمه اليمنى تخبط الأرض. تبعتها اليسرى بعد حين. تأرجح الجسد معهما راقصا. كأنه فرقة من خمسة أشخاص. ناب عن الجميع أو حضر الجميع فيه. هكذا نجح الجذب والعزف والرقص والذكر والاستحضار والتفجير للحظة الواعية داخل غيبوبة اللاوعي.

الكنّس الخنس، جيلالة ومقام الشجرة. جيلالة وإيقاع الحضرة. جيلالة أصحاب الحال من أول نظرة. يغسلون أجساد الناس من الذنوب ولا أحد يقدّر دورهم. يطهرون الروح من مرض النفوس وقليل من يبدي قيمة لأدوارهم. جيلالة دموع تنهمر حين اشتداد الجذب واستحضار هذه الأدوار، ساخنة تحرق الأحشاء قبل الجفون والخدود التي تنساب فوقها أو تتقاذف كريات تأبى الذوبان في حينها. كل هذا يشعر به الجيلالي بوجنان ويؤرقه فيدفعه إلى حرق الذات بلغة مدمني مادة الكيف أو ماء الحياة التي يستعملها مع نظرائه دون غيرهم.

كان استغفاره بضريح الشيخ الكامل حول المرأة. الآن جعل استغفاره لما استنتجه من تيه الموجودين بسيدي مول الما. وكأنه لم يستسغ تواجد هذا الضريح ولا وظيفته. كأنه حدَسَ خدعة ما، قائمة كسرٍّ فيه. وهو الخبير بسيرة الأولياء وثقلهم وصدقهم وتأثيرهم، استشعر آلام الضربات، تلك التي كان يوجهها لجسده بقبضة السكين ونصله لذراعيه وكتفيه بمكناس، استحضرها هنا في جذبته بضفاف سبو. دائما مكانان في حضرة واحدة أو حضرتان في جذبة واحدة.

فهل استطاع أن يخلّص المرأة من عذابها ويساعدها في ندائها. امتلكته غيبوبة هنا كما هناك. ستكون كافية لتخليص جسده من حضرته، وروحه من شقاوة تساؤلاته وحيرته ومعاناته. خمد صوت الگوال وإيقاعه، وبقي الصدى الناعم للناي متراجعا لينام نومة طفل صغير غفا وصَفا واسترخى ونام. ساد بعد ذلك صمت رهيب. علق معه البريدي من جانب الضفة الأخرى:

.يبدو انه أحد المجاذيب، جاء ليتبرّك بسيدي مول الما.

*

نادرا ما يكون هناك حضور لذئاب في هذه المنطقة الآهلة بالسكان وبالضيعات التي يشتغل فيها العمال يوميا. حتى ضفاف النهر الكبير باتت خاضعة لاستغلال في الري وجلب المياه إلى الأراضي البعيدة بواسطة محركات وعسس ومصابيح وحركة تزعج المحيط. لكن هذه الليلة ظهر فيها البدر مكتملا وكبيرا بحجم تكبر معه الرؤية والعين وتقترب فيه الكواكب فيما بينها، درجة تجعل موسم الإخصاب عند بعض الحيوانات مرتبطا بهذا الاكتمال وهذا الجمال، وكأن ممارسة الجنس تحتاج لإخراج طبيعي أو هكذا يتخيّل المتأمل للظاهرة.

كانت الحاجة الميلودية جاحظة العينين داخل عتمة الضريح، تنعكس عليهما لألآت الماء المنساب والذي غدا بهدير قوي هذا المساء. لكن ذلك البدر المضيء والمؤنس في رؤية فتحات البناية على النهر والشعاب سرعان ما احتجب وراء غيمة داكنة. كانت ريح قوية قد بدأت تهبّ من جهة الغرب، وكانت أشجار الصفصاف والكليبتوس قد بدأت تعزف سمفونية أغصانها قبل أن ترددها أشجار دفلى أو قصب أو سمّار.

لم تعد للكلاب أصوات تتردد في الأنحاء. ربما ذهبت في طقسها الجماعي باحثة عن تحقيق لفطرتها وغيرتها وتجمعاتها الحيوانية الخاصة. سُمِع عواء ذئب من قريب. الليل في حلكته والأنام نيام إلا ما كان من الحاجّة التي ارتجفت وكأن ساعة خاصة قد أتت لكي تجعلها تشارك في حفل خاص وجديد. أشعلت شمعة. وَقَتْها من الريح الباردة المتسللة بصندوق كارتون يستعمل كطاولة صغيرة في نفس الآن. تمايلت أضواؤها الخافتة وبرقت معها عينان حمراوان صغيرتان من بعيد، لكنهما سرعان ما اقتربتا أكثر. رائحة شواء وبقايا طعام من أشلاء وأمعاء مرمية بضفاف الساقية والبركة. اقتربت تلك السرحانة أكثر، وفعلا كانت اسما على مسمى، فقد سرحت أكثر حتى دخلت في دائرة الأنام ومحيطهم المحمي. كانت أنثى ذئب قد سبقت الذّكَر في الاكتشاف وهو المتتبع لحركاتها وغنجها وحاجاتها المرغوبة كاكتشاف ومغامرة واشتهاء. يبدو أن البدر تأخر في تسليمه هديته منها وتلبية رغبته معها. عوى من جديد محذرا لأنثاه من الاقتراب أكثر.

بدت قامته طويلة، في هيأة إنسان. عصاه وقد سبقت ظلّه الباهت بجانب الماء. صندوقه وقد تأبّطه منذ فراره المختار من فيلا ماري روز بمدينة مكناس. تاه من جديد وتاهت معه أحلامه وأسرار صندوقيه العجيبين. كان الروهاني هو مَن ظهر في جوف الليل مرة أخرى. لكنه هذه المرة، كان واقفا بجانب فتحة الضريح، رجلاه في الماء ويده رافعة لعصاه التي هوى بها على رأس السرحانة، أنثى الذئب اللعينة التي كشّرت بأنيابها وبلونها الرمادي وبلعابها وعوائها المستعد للفتك بفريستها. كانت حالة رعب متبادلة بين السرحانة

والحاجة الميلودية التي كتمت أنفاسها واستعاذت بالله و بسيدي مول الما، حتى ينجّياها من هذا الخطر والتهديد.

عوى الجرموز مستنفرا وغاضبا، كانت تجربتهما طرية وناقصة. خدعتهما رائحة النهر التي بدّدت قدرتهما على الشم واستعلام الخلائق المقتربة. وبينما هو في فراره المتسارع والصارخ بعوائه كانت عصا الروهاني قد أتت على آخر أنفاس السرحانة. وقف بعدها بطيفه وهيأته شامخا رغم كبر سنه أمام فتحة البناية المائية. كثافة شعره وانسدال ضفائره، أسماله التي انطلقت تلابيب مبللة ومتلاصقة، يده التي تقبض على إطار الصندوق الخشبي والذي اتسع لاحتواء الأصغر منه.

.هو بالتأكيد.

هكذا همست الحاجّة الميلودية داخل أنفاسها المضطربة. لم تخدعها الذاكرة ولا الحدس. لو أنها فقط لمست يده اليمنى لتأكدّت من شخصه. ابنها كان وما يزال يلقب بالستاتي، وهذا ينتمي لجنس الستاتي. كان الروهاني يمتلك أصبعا صغيرا زيادة في يده اليمنى بجانب خنصره الصغير. هي التي لمسته وهي التي دحرجت كفها وقبضت عليه بإبهامها وسبابتها، استحلت نشوتها في اختراقه وفي اكتشافها الصامت للأصبع الزائد في يد هذا المخلوق الليلي الذي أنجبت منه ابنها الوحيد. لم يعُدْ له خبرٌ عن تيه أمّه. لم تجعل له تتبعا لحالها. جل الخيوط التي ستوصله لمقامها جعلتها بحدس أو بتدبير مقطوعة ومنعدمة. لا حضور لهذا الابن لكي ينقذها من هذا المأزق والخطر الجديد. كيف لها أن تميّز بين فقدان الذاكرة وبين

تدبير فرار داخلي جديد من غرائبية حياة وتجربتها الجريئة؟ لا جواب عندها.

دوي الرعد الجديد كان قريبا جدا. أتى برقه على شجرة الكاليبتوس السامقة في الضفة المقابلة. اشتعل لهيبٌ وسرعان ما أخمدته العاصفة الجديدة. لكنه أضاء لمشاهدة وقفة الجيلالي حاملا لآلة دفه ورزمته. كانت العاصفة قد ابتدأت مع زوبعة خلال بداية المساء وريح عاتية ورعود مسموعة من بعيد. قيل إنها عاصفة ضربت في عمق الجبل أعلى جهة الشمال، لكن الوادي لا يعترف بالبعد، فقد أتى بحملته التي جرف معها الغث والسمين، وكان دور بناية الضريح لكي يجرفها معه إلى العدم وربما إلى سيدي مول الما الحقيقي.

سُمع تكبير من الجهة الأخرى للوادي. كان صوت سيدي بوجنان مكبّرا وحامدا وطالبا الرحمة بالبلاد والعباد. التفت الروهاني للصوت كما التفت لأنين مرتجف في زاوية من بناية الضريح. كان صوتها الذي لن ينساه رغم أنه كان في حالة صرع. لكنه صرع اختلط بنشوة، فاكتملت الرغبة بين لذة وألم. لم يرغب في غيرها طيلة هذه السنين سوى ما وقع من تعلقه بصورة ولوحة ماري روز وعطرها الذي امتلكه سحرا يخترق منامه في أحلام مضطربة وغريبة. لم يحقق بعدها إلا ما جمع بين الألم واللذة، ولن يدرك حقيقتها إلا المجرّب.

خطفها من يديها وخرج بها وهي تطلب شفاعته ورحمته وألا يُلحق بها سوءا. ترجّتْه باسمه:

.سيدي مول الما، أنا مزاوگة فيك، أنا متّايبة لله !

كان جسدها قد عام في الساقية التي أصبحت مدًّا هائجا على غير المعتاد. عبر بها لجانب الوادي والنهرُ قد اعتلى على البناء فهدّه وجرفه ألواحا وترابا، فأصبح المكان كاشفا على مصابيح فارّة بأصحابها من فيضان نهر سبو. لا ثقة في الوادي، هكذا حكمة الناس منذ القديم. سُمِع صوت البريدي مستنجدا. بقي الروهاني متاملا لغرقه وذهاب الموج به إلى جهة مجهولة. ربما سيجدونه في الصباح وربما لا.

نصف ساعة تقريبا كانت كافية. بعدها عاد البدر للظهور. هذه المرة كان مائلا جهة الغرب كمخرج لمشهد الفيضان ووقائعه. بجانب شجرة الكاليبتوس المقسومة حتى قاع جذعها، كان الجيلالي بوجنان واقفا بعباءته الخضراء المبللة ودفه على الكوال وقد تجدد بإيقاع ولازمة جديدين. قبالتَه كان جسد الروهاني منهكا بسبب عملية العبور المجازف وبجانبه جسد الحاجة الميلودية المرتجف قشعريرة وبردا وخوفا. لا يستطيع إنسان أن يعبُر نهرا وهو في هيجان وفيضان إلا مول الما، والذي كان هيجانه أقوى من هيجان الطبيعة.

رغم فزعها اندهشت لما يقع وما تزال في اندهاش. اضطربت نفسيتها وطفت ذاكرتها بطبقات المخزون في الذاكرة والحياة، وكأنه سِجّلُها من الأفعال وقد حضر ليوم القيامة، وكأنه يوم القيامة فعلا وقد حلّ بعلاماته وفنائه، وكأن الزمن عاد إلى الوراء لكي يحاسبها على فعلتها ويجعل لها الصاعقة والقارعة والقيامة الخاصة بخيانتها وفعلتها.

هكذا راودها كل هذا شعورا وهي ترى الموت وقد اقتحم بوابتها زيارة.

.آهيا مول الما، أنت مزوجة بمول الما...

ردّد الجيلالي اللازمة مع دفه على الگُوال.

أية شفاعة جعلتها الحاجة الميلودية في لازمتها الجديدة التي أنشدها الآخر، وهي في حالة هذيان قريب من الجنون ومن الحكمة؟

سُمع زفير غاضب وحانق للروهاني جعل الجيلالي بوجنان يتوقف عن أدائه الساخر. لكنه قدر جديد رسمه هذا الغضب كما هذه العاصفة. عاصفة أتت على ما يؤثث الضفة المقابلة دون هذه التي لم يحصل فيها سوى هذا البلل وهذا الانشطار لشجرة سامقة. رائحة الماء أصبحت قوية. رائحة التراب أصبحت كاسحة. كيف ستطفو هذه ممزوجة مع تلك فتخترق الخياشيم وتدعو الغرائز والأجسام التي تراقصها في دواخلها؟ كيف سيصبح سلوك الثلاثة بعد هذه العاصفة وهيولتها الطبيعية؟

كانت رحلتهم الثلاثية من جديد. إلى أين؟ كان الروهاني هو الموجه في الطريق.

*

داخل الصندوق الكبير تقبع صور للسيدة ماري روز، مفتاحٌ ورسالة مكتوبة باللغة الفرنسية، قارورة عطر بتوقيع (ن.ي.ن.ا ر.ك.ش.ي) نصف مملوءة. بالكاد يتهجى حروفها. لم يألف لغة غير لغة الكنيسة وترانيمها. بعد المسافة الزمنية بينه وبين حياة الأخوات جعلتْه ينسى مجموعة من التعابير والكلمات. لكن، كذلك بيئته الجديدة التي جعلته يتعلم الدارجة المغربية ويتكلم بها. ورغم ذلك فقد جعل ذهنه يقتلع معاني الحروف ودلالات الكلمات كأنه صاحب حفريات يخرجها مستحثات من جوف الصخور. هكذا استعاد قراءة اللغة الفرنسية خلال رحلة الصندوق الأول ثم الثاني، ورحلة المذكرات معهما.

إنما خلوته كانت لغة صوت وأصوات خاصة ممزوجة وغامضة الحروف والنطق. وها هو هذا الصديق الغريب الذي ألفه بتناقضاته وحماقاته وحكمه التي يكتشف منها كل يوم فهما جديدا وسلوكا عجيبا.

كانت فلسفة الجيلالي بوجنان عملية وغنائية وبدائية. كانت حياة ترحال فعلا وبساطة. كانت تناقضات عملية تبدو للعيان. لكن بوجنان كان الحكيم الذي يختبر ويرصد محطات الانفعال فيسبقها

في رد الفعل حتى تنعرج عن حالات غضبها أو توتراتها أو وقوعها غير المناسب في نظره. إنه المجذوب الذي يهابه الناس كما يحترمونه ويغدقون عليه بالعطايا. فعلا، لقد شاهد الروهاني ولاحظ، حين رفقته، كيف يدخلون قرية ويمرون بين أزقتها المتربة. كيف يتبعان هو والحاجة الميلودية هذا الخائض في دف گواله والغناء معه. وهؤلاء الأطفال الذين يصرخون ويرقصون. النساء اللاتي تخرجن من جحورهن أو تتوقفن بحمولات مائهن أو حطبهن.

.البركة، البركة.

تكون عنده أشرطة تين يابس. يعلقها على كتفه كحبل متين سيتسلق به الجبال أو الجدران. ينزع كل مرة حبة تين ويناولها للمقترب منه، داعيا له بالبركة. يستنتج العامة أنه المجذوب. يقف في وسط ساحة ويزيد من الدف والنداء بالحي القيوم. يخاطب الحاجة بلازمته: الله حي، الله حي. وكأنه يدعوها للجذب والرقص. تبدأ الحاجة في التمايل بكتفيها. وسرعان ما تبدأ قدماها في الاهتزاز من فوق اليابسة وكأنها ستعرج إلى السماء. تتزايد السرعة والخطوات في تناوب ارتفاع. تنفش شعرها الأحمر المنفلت من عصابة رأسها. ينفلت الغطاء حتى يصبح لا هو بخمار ولا بحجاب ولا نقاب. ثوب يحيط ويستر والسلام. ويستنتج المشاهد أنها لا يهمها المظهر بقدر ما يهمها هذا الاتقاد في التوحيد والسفر بالوجدان في إيقاع التحليق للتقرب من الله تعالى أكثر.

لم تكنْ في يوم من الأيام ترقص بهذا الانقياد على إيقاع جيلالة. سايرت مجموعة من الفرق ككناوة وعيساوة، لكنها مع رفقة الاثنين ومع اختراق دف الجيلالي للَيلة الفيضان وقيام ساعة مول الما،

الروهاني الحي والماثل أمامها وبجانبها، مع الفزع الذي عاشته والنجاة التي عبَرت معها ذلك النهر العظيم، ومع اللباس الذي تدثّرت به للحياة الجديدة بألوانه الخضراء والحمراء، ها هي بكل كيانها ترجع الفضل في حياتها الجديدة لهذه الموسيقى التي تجمع الثلاثة وترسم لهم رحلة كشف وجذب، كما تُرجِع إنقاذها للإثنين معا.

طبعا لن تنسى حمل الروهاني لها فوق كتفه وعبوره النهر. لم تقف على الروايات التي تكاثرت بعد ليلة الطوفان الذي ذهب ببناية الضريح وسقوف مبانيه وخيامه. قيل إن الماء انشق مثلما انشق لسيدنا موسى عليه السلام. اعتبر بعضهم ما رآه وما رواه شهادة حق للمعجزات وتفسيرا عيانيا لها. موجة تنعكس خلف جريان الماء وأخرى ترتفع كجدار أو حائط تدفع أقدام ذلك السامق الطويل المجدول الشعر الذي يبدو طيف خياله أكثر مع سرعة الخطو وسرعة جريان الماء والعاصفة. كفتحة ورقة مائية كان وصفهم لما وقع، أو كسلسة بدا الروهاني سحّابها فوق صفحة الوادي المتموجة. انتصرت الروايات لسيدي مول الما أكثر وجعلتْه قد تعدّى بقوته المهيبة قدرات سلطان الجن شمهاروش الذي يتحكم في الحي والميت والذي يجمّد الحركة والمكان والزمان معهما.

ولم تنس الحمى التي اشتعلت في جسدها بعد تلك الليلة، وكيف كان الجيلالي طبيبا منقذا لها. كيف عرّاها من لباسها ولفّها في أوراق نباتية وبلّل جسدها بأوراق ندى الجبل والبصل الأحمر ونونخة. كيف طبخ لها في قدر حجري ورق الصفصاف وأضاف له عسلا استخلصه من زهر الصبار. كان الجيلالي هو من أعاد لها حرارتها الطبيعية ومن سهر لليلةٍ ونهار على سلامتها.

كان الروهاني حينها مندهشا ومزمجرا ومغمغما. لم يعلم ما يستطيع فعله ولماذا. أستاذه وشيخه تكلّف بكل شيء. حبس أنفاسه متأملا واكتفى بأن يكون باحثا عن قوت بالجوار ومستكشفا لأمن هذا الجوار.

تندهش لحال الجيلالي. كيف يبكي حين يتصاعد دفه على الكُوال، كيف يصرخ: القصبة، القصْبة... كيف يطلب منها أن تصرخ بأعلى صوتها: وا الجيلالي ! وا الجيلالي ! يصبح الجمهور القليل المتابع مردّدا وا الجيلالي. تتعالى التصفيقات بكامل صفحات الأيدي، وينخرط البعض في الحركات الراقصة، وقد يزداد عدد المنضمين لحلقة الرقص.

يعلم أن كل دوار تسكنه إيقاعات متنوعة. فيه أصحاب عيساوة وأصحاب كناوة وأصحاب حمادشة، وكذا أصحاب جيلالة. يعلم أن إيقاع جيلالة ينتصر للمقهورين والمظلومين والمتألمين في صمت أكبر من الآخرين. لذلك يعتبر مهمته صعبة وخطيرة ومهمة في آن.

هو المجذوب، متجول بين وجوه المتفرجين، داعيا لهم بالحضرة والترديد: الله حي، الله حي. قد يسمع شهقة أو تنهيدة فيزيد من وقع الدف ويقترب من صاحبة الحال. يقرأ في عينيها وشكلها وصوتها. يجعل الحضرة خاصة بها فتنتقل الأعين للتركيز على هذه المنضافة لحلقة الجذب والحضرة.

وتبقى الحاجة الميلودية مستمرة في رقصتها الفريدة، لا يهمها هذا الانتقال والاهتمام بغيرها. هي في حالها الوجودي والوجدي الخاص. تنفتح الأفواه اندهاشا لهذا الضم وهذا الانتشار في رقصتهما، بين

نفخها في أذنه وبين تطاير تلابيبها في أرجاء الدائرة التي ترسمها أرجل الحاضرين والحاضرات.

قد يكون هناك شيخ كبير جالسا القرفصاء فوق صخرة أو باب خشبي منفلت من الزمن لكي يشكّل مدخلا لفضاء منزل ما، وقد ركّز اهتمامه على هذه الحاجّة لكي يجمع شروط تحليلها والحكم عليها. أما حال تلك المرأة أو الرجل المنجذبين لجيلالة وفرقة موسيقاهم، فربما يعرفه باليومي وبأحداث القرية التي يدونها في ذاكرته أكثر، فيحلّلهما بشكل مفصّل. وحينما تنتهي الرقصة ويذهب المجذوب ومرافقاه إلى حالهم، تجد أفراد القرية وقد ركّزوا اهتمامهم على ما سيقوله أو يستنتجه هذا الشيخ أو شيخ آخر، لكي يبقى لهم الحكم النهائي والتجميع النهائي للرواية التي ستؤثث مجالسهم وحكاياهم.

لم يكن المجذوب ضيفا جديدا. كان مرافقاه هما الجديدين على المشهد. لذلك، تعلم نساء القرية على أن رؤيتهما اكتشاف لغرائب حياة الناس وأحوالهم. يعلم الجميع على أن هذين المرافقين يعيشان معاناة وحياة غرائبية مرتبطة بمرض أو هبل، أو ممسوسان بجن أو قرين له... يطلبون الشفاء لهما ويتبرّعون بما جاد به كرمهم دافعين البلاء وشرّ ما رافق طلعة هؤلاء الثلاثة.

من النساء من تعرّفت على الحاجة الميلودية. ربما رأتها في فضاء الضريح، ربما التقت بها في إحدى الأسواق، فتُعلق مع جارتها:

. المسكينة، تلك حاجّة بخيرها ورزقها وأسرتها. انظري إلى حالها، أصبحت هائمة في أرض الله. الله يستر و يشوف من حالنا.

ورغم أن الصندوق لا يفارق الروهاني، إذ يحتوي على صور أحلامه المشتهاة والمتصورة وقارورة عطره أو إكسيره الذي يخترق خياشيمه كلما قرّبه إلى منخريه، فإن مهمته التي لم يفطن لالتصاقها به، كانت في تقبّل العطايا والهدايا وجعلها مجتمعة في وعاء خيش. قد يعجب الأطفال لذلك السلوك الذي يلاحظونه عنده. فقد يجعل اللحم الطازج مع السكر وحبوب الشاي والخبز والزيتون في آن. يضحكون ويصرخون. ويتبادلون الضرب على أكفهم ويتبعون المشهد بمتعة مستغربة ممّن يتخلّف عنهم في سلوك متحضر ما.

.انظر، حتى النقود جعلها مع الطعام.

يعلّق الطفل الصغير ويجري مواكبا مشهد هذه الطائفة التي كسّرت رتابة اليومي باحتفاليتها وغرائبيتها المتجددة كل حين، كلما سنحت الظروف والصدف لهذا المجذوب سيدي بوجنان بأن يتبرّك عليهم بمروره وزيارته لهم ولبلادهم. عساها تكون سنة خصبة وممطرة. عسى هذه اللعنات تذهب، وذلك القيظ والجدب ينعدم. هذه مُنى الجميع. أما منية المجذوب فهي أن يهيم في أرض الله الواسعة، وفي أن يؤجّل معانقة أمّه الأرض، ربما حتى يحين أجله لكي يخلد في حضنها مستريحا. أما الآن، فلا راحة للعيش في الدنيا وحياة الناس كلها هموم وحرمان.

يبقى سرّ ذلك الصندوق الذي أثار تساؤلات عدّة وابتكر في خيال بعضهم حكايات مؤولة أو منسوجة. ما الذي يتضمنّه إن كان كيس الخيش جامعا لأموال الطائفة وعطايا الناس لها فما الذي يوجد فيه؟ أفاعي، ثعابين، جني مأسور...؟

*

لقد انطقلت رحلة الروهاني رفقة الحاجة الميلودية والجيلالي بوجنان من ضفة نهر سبو الشمالية والتي لم تعرف نفس درجة الانجراف مثل نظيرتها الجنوبية.

كان محظوظا بارتدائه العباءة التي أعطاه إياها الجيلالي بوجنان. نفس الأمر مع الحاجة الميلودية التي لبست ما جادت به رزمة رحله بعد أن جففت بدنها المرتعش .ربما مع ارتدائها تلك العباءة المهداة كذلك . وبعد نزلة الحمى الشديدة التي كادت تودي بحياتها فامتلكتها إنقاذا .أصبحت الحاجّة الميلودية منتمية روحيا ووجدانيا لفرقة موحدة اللباس بامتياز، مزركشة الألوان. فقط ما كان من الجيلالي الذي كان لون عباءته أخضر. ولأنه يحب الألوان الخضراء والحمراء والسوداء فقد احتفظ بالأبيض داخل رزمة حاجياته التي يحملها فوق كتفه مسندا لها داخل عصا غليظة وقصيرة ومعقوفة الرأس:

. ذاك كفني بعد سفر روحي. أرجو أن تدفن آلاتي معي، ولا تنسوا قصبة الناي. ذاك صفائي وطهارتي الأخيرة حين لقياك يا الله.

سيكون الجيلالي هو المرآة الثقافية التي ستزيد من تشكيل شخصية الروهاني الجديدة. فرغم العشرة الأولى بينهما، ورغم

اندهاش الروهاني وتأثره ببعض طباع وكلام هذا المجذوب الهائم في أرض الله، كان عليه أن يلتقي به صدفة من جديد ويتفاعل مع متناقضاته التي لم تكن دائما لترضي الروهاني بقدر ما ستثير الصدمة وولادة الموقف والرأي والفكرة المفاجئة ربما.

كان لباس السي الجيلالي عادةً ألفها معه رجال أهل مدينة وزان الجبلية. يستغلون مرابطته في إحدى زوايا الدروب المؤدية لضريح مولاي عبدالله الشريف، يسرقون عُدَّتَه وعتاده، فيغيّرون لوازمه من لباس وأمور أخرى. ربما هذه المرة لزمه الحذر والاحتياط المناسبين. لم يجعل كامل لوازمه معه. ترك بعضها أمانة عند صاحب دكان يبيع لوازم البهائم بجوار السوق الأسبوعي القديم. ذلك أن المجلس البلدي قرر وأبعد موقع السوق الأسبوعي لتصبح المدينة بدون ذلك النبض الجامع بين أنفاس الخلائق وأصواتهم ومشاعرهم الممزوجة بالبيع والشراء وما جاورهما وتقاطع معهما.

حينما غادر ديار مدينة وزان، كان لباسه جديدا أخضر، وكان من بين الهدايا العباءات التي كانت امتحانا له في نفس الآن. هل سيلبس الأبيض؟ لون التحدي الذي جعله للإيمان والتواصل مع الخالق سبحانه. كان حظ الأخضر المزركش بالأحمر والأسود من نصيب الروهاني والحاجة الميلودية. وكأن هذه الألوان تسكنها الخلائق. الأخضر للملائكة، والأبيض ليوم اللقيا، والباقي لأصحاب الحال الذين يسكنون أرواح العباد.

وكأنه جسر طهارة يسبقه امتحان الجذب وقد جعله معهما من أجل التقرب إلى الله ومن أجل مرافقته في رحلته. رغم أنه سيكون هو الذي سيرافقهما في رحلتهما. رغم أنه يؤمن بأن السفر قدر رباني

لخلقه الذين يحبهم لكي يكتشفوه من خلال فسيح دنياه العجيبة ويسبّحوه بواسطة اكتشاف الرؤية والرؤيا. لا قيمة لمسافات المكان مهما تباعدت. القيمة لمسافة القرب التي يجب أن تتحقق بين العبد وخالقه:

خطوي سابق المكان

نجيك يا ربي عريان وحفيان

تسترني من عيبي ومن كل عصيان

نجيك يا ربي طالب سلامة

نمسح دموع عبادك فوق رزتي وهاذ العمامة

نجيك يا ربي وما نخالف وعد

خذيتو على قلبي حبة فهامة

يردد تراتيله. قد لا يفهمه أحد. يسمعه الروهاني الذي يكتشف في ذاته سرعة حفظ لما يسمع. يردد معه الكلمات والمقامات. ما أعجبه كثيرا هو الغناء الذي ينطلق فيه الجيلالي بآلة الگْوال.

الله يا مولانا...

يضحك الجيلالي لكون الروهاني سحرته اللازمة. يسايره فيما يريد وتنطلق الحاجة بعد صمت الأيام الأولى في التسليم بقدر الرحلة والرفقة فيها مع هذين المجذوبين. تجذب وتحضّر برقصة بطيئة مسايرة لإيقاع المدح والنظم. ماذا تبقى لعقلها من منطق لكي تحلل

به ما يقع؟ ها هو ولي الضريح الذي قدّسه الناس وجعلوا له بركة وزيارة وتقربا وقربانا وتعوّذا، ها هو حي يرزق، إنسان يبحث عن حياة ويتيه في بحثه. لم تلفظ الحقيقة المكتومة. ربما كانت آخر ما يمكن أن يسمح في البوح به هذا الوعي وهذا اللسان. من المحرمات التي تنذر بالموت وبالجحيم. أن يكون الروهاني أب ابنها الطبيعي. من يعلم الحقيقة. وهل الروهاني يعْلمها؟ إنما، لماذا أصرّ على إنقاذها من أنثى الذئب المتربصة باعتكافها في زاوية ومقام سيدي مول الما؟ ولماذا أصرّ على عبور الوادي بها وجعلها ترافقهما في رحلتهما؟ هل رأى في عينيها ما رأته هي في وجهه و يده اليمنى؟ رأت ولمست الأصبع السادس. تذكّرت هياجها في نشوتها التي استمرت أشواطا ثلاثة متتابعة. ذلك العطش الذي كان وسط الماء وغرقا فيه.

ظمأ الغريزة الذي تفجّر نارا في رقصة الساقية والبِركة. رأى وشمها وعينيها الحمراوين اللتين تنطلقان شرارة نارٍ إذا ما ركّزتا على ضحيتهما في النظر. أنينها الذي انطلق خوفا وارتعابا من لعاب الذئاب. نفس الأنين المجروح الذي عبّرت به في امتطائها لصهوة جسده دون استشارة لوعيه ولحالته الطبيعية. بل عواؤها كذلك تشابه وتطابق وكأنه توقيع التعرف على هويتها. عواء لحظة الهيجان الجنسي، وعواء لحظة الرعب والخوف من السرحانة.

كان فعلها اغتصابا مثلما كان فعل أب الكنيسة اغتصابا. كلاهما استغلاّ حالته المرَضية في الصرع لكي يحققاها نشوة مبتغاة. لذة لم يردها ولم يشأها. الآن، سيتحكّم في مسار ما وقع. سيجعل للّذّة طريقا جديدا. سيراجع ذاته وذهنه.

منذ مدة لم تأته حالات الصرع بنفس الحدة. انتقلت إلى جذبة يدخل في إيقاعها بكلامه ورقصته وحضرته. وكأن الروح وجدت ملاذها لكي تنفصل عن هذا الجسد دون تلك الحدة والتوتر. كان الجيلالي صاحب مقام هذا الشفاء. والآن سيستمر في تخليصه منه. لم يحتاجا إلى الإفصاح عن كل هذا المكنون. كان الثلاثة مندمجين في تحقيقه في صمت مطبق، إلا من كلام الجذب والشطح والحضرة والترفيه الذي يفرضه الجيلالي بوجنان، إضافة إلى الاجتماع الذي يقحمهم فيه كلما مروا من دوار أو قرية أو أرض فلاحية عامرة بأهلها.

وكأنه يرى ولا يُرى. وكأنه لا يفقه في ظاهر الأنام شيئا. قد يسخرون، قد يتكلمون عنه أو عن أحوالهم وأسرارهم أمامه فلا يعيرونه انتباها. إنه المجذوب الذي تكفي بركة حضوره وقربه. لكنه المجذوب الذي بمجرد فتحة رؤية واحدة يستنتج كل شيء أو يكاد. يحملق في نظرات الحاجة للروهاني. يلتفت للحظات شرود مرافقه الغاضبة أو المتعجبة. كيف يرسم بنظره حركات الحاجّة، وكيف أنقذها، وكيف اشتعل غيرة حين ممارسته طقوس إشفائها... والقدر عنده قياس ومنطق ونتيجة. يتنهد راجيا ربَّه: ياربّ! ويتابع معلّقا:

. غريب هذا العالم . يعبّر الجيلالي في لحظات استراحة . وكأننا نبحث عن طبقات الحياة المنسية وعن خلائقها لكي نرفعها لدرجة الظهور أمام الشمس وتحت أشعتها. يكون القمر مصباح أحوالنا والشمس محكمة أفعالنا. لكن الله يرانا ويفعل ما يشاء فينا.

لا تفهمه الحاجة فيما يقول. تنظر له وتنطوي في جهلها. تحوّل بصرها إلى الروهاني الذي تستغرق نظراته المستغربة كل الحيرة والزفير والقطب.

.أين تأخذاني ؟

كانت الطريق شاقة بعد ليالٍ وأنهر. عبَر الثلاثة فيها (فج تيسرى) لكي يشقوا خطوهم إلى وجهة بلاد الصندوق الذي أصبح يثير فضول الجيلالي، وفي نفس الآن أصبح يوتّر أنانية الروهاني فيهدّد كل من يحاول التقرب منه ولمسه أو فتحه.

*

الطريق إلى مكناس عبر الأودية المتشعبة والملتوية غنيٌّ بالمصادفات مرورا بوادي الرمان وعين جمعة وعين كرمة. ضيعات وبساتين وحقول. أنهار وسواقي وشعاب ومروج. تتمتع العين بهذا التنوع الذي يبهج النفس فتدعوك للخلود في النظر أو في المكوث. لكن طريق الثلاثة، رغم كل هذا الشعور الذي قد يكون متوزعا بين أنفسهم، يرسمه القدر الذي اجترّته نفسياتهم ووضعياتهم وشخصياتهم وماضيها كما مستقبلها واختياراتها إليه.

لم يكن سهلا على الجيلالي بوجنان أن يرافق رجلا وامرأة. منذ عقود وهو في خلواته وابتعاده ما أمكن عن مثيرات الاستقرار. لم يسأله الروهاني في يوم من الأيام عن طريقة انخراطه في الجذب وحياة مجذوب. هو مجذوب وكأنه طبع بهذا الخاتم والتوقيع منذ الأزل. لكن الأزل في هذه الدنيا ساعة تدق، لها بداية كما لها نهاية. إنما، من يدري؟ إذا كانت البداية تعلمها نفس صاحبها وتجترح بدوافعها ومسبباتها، فإن النهاية لا أحد يتحكم في مجريات ما سيحققها أو يوقعها.

صادف مرور فرقة أصحاب الحال . هكذا سماهم الناس، وهكذا سبقهم صيتهم في الأسواق والطرقات . وجود مناسبات اجتماعية

كثرت معها الولائم والاحتفالات. أنعم عليهم الجل بالطعام والشراب واللباس والمال. في كل محطة وجدوا رغد العيش فكانوا المستفيدين من تعشيره وبركة كرمه. قد يصمت الجيلالي مقطبا ومتنذرا من يسر الحياة الجديد. أمامه امرأة بصوتها ولحمها وانقيادها، وأمامه رفيق غريب مستحق لكي يكون مجذوبا. رفيق لا يفكر في بهرجة الدنيا ولا في تملك أشيائها. أرض خصبة للإيمان كما للاشتعال بجذب الحال. إنما ما يحتار له الجيلالي هو هذا التلاقي بين رجل وامرأة، سببه وسرّه. هي تبحث للتقرب منه أكثر، وهو يصرّ على بقائها بقربه دون ابتعاد قد يفقده بوصلة العيش الآتي. والمجذوب سي الجيلالي لا يريد أن يكون الأبله في الحكاية رغم أنه الحكيم الذي يقوده خطو الحال إلى خدمة ما يسّره الله له من خير وبركة وحل ويسر بعد عسر للأنام. الله وحده من يعلم ومن يقدّره على ذلك. السر بينه وبينه خالقه. البوح والجهر به حرام وشرك بالله العظيم مادام سيدخل في رياء أو تكبّر أو عجرفة. هكذا يعبّر لرفيقه الروهاني في لحظات النشوة بمادة الكيف التي يدخنها بشراهة كلما وجد إليها سبيلا.

سيكون لكهرباء الجسد دور في تفاعل الخلايا واشتعال الرغبة وتوقد الغدد. كما سيكون لهذه الطاقة من النعمة التي تنعّمت بها النفس والذات دور في تحكم ما هو طبيعي ودعوته للتلبية والتحقيق. لا ينسى الجيلالي اللمسات التي احتكت فيها يداه أو كتفاه مع جسد الحاجة الميلودية. يشعر بحرارة متزايدة. لا ينسى مع الآتي أنها أنثى وأنه ذكر مهْما دفن جنسه في النسيان محاربة لألم التذكر.

ربما لم يفكر بهذه اللغة، لكنها لغة الجسد والغدد وانتهى الأمر. فعلا ستكون نهاية الأمر حينما فكّر وارتمى على جسد الميلودية ملبيا رغبته الجنسية. لم يكن هو الذي أراد، ولكن شبحا ما بداخله أراد، فكان ما تحقق بالمراد. لم يكن رفض الميلودية بالمقاومة العنيفة. بصمتها واحتجاجها المرتبط بحشومة وحرام وليس هكذا... كان الجيلالي مخترقا لثوبها ولجسمها، سائلا في هيجان كجليد يذوب بشدة الحرارة والطقس المرتفع والمتوتر.

حينما عاد الروهاني من قضاء حاجته وجد المشهد في نهايته، لكنها نهاية دالة على ما وقع. الجيلالي يجأر ويجأر ثم يعوي ويعاود الصوتين في جأر وعواء. رفع الروهاني عصاه هائجا وصارخا وعيناه محمرّتان، توسّل إليه الجيلالي مستشعرا الخطر والفتك القادم مع هيجانه، نابت ذراعه في استقبال الضربة ولكن رجاءه كان أنينا وصوتا فارًّا في جش، وحينما هوت العصا عاد للعواء كأنه ذئب هائج وجريح.

لم يهمه الكسر الذي يمكن أنه وقع بقدر ما همّته النجاة بجلده من موت أكيد محتوم بين يديّ الروهاني. عدالة هجومه لا يستطيع تبرير رفضها أو الاحتجاج عليها. فرّ وجرى وبدت ساقاه تسبقان خطوَه وظلَّه وعاد له الكلام الآدمي:

.العفو يا مولانا.. العفو يا مولانا...

جلس الروهاني مزبدا في رغوته. حالة توتر انقبضت لها أنفاسه فلجأ إلى الصراخ المتكرر الرافض للحظة والمشهد. يلتفت إلى الميلودية فيجدها ملتفّة في تلابيبها تنتظر القدر الذي سيقرره وحشها ووليها

سيدي مول الما، الذي كان في يوم من الأيام بوزبطة الذي أنجبت منه ابنها السباعي بوشعيب. كانت الرغبة هي المتكلمة والمعبرة كذلك. ضاجعها بقوة وشراسة وصراخ. لم تقاوم. تألمت في البداية مثلما تألمت مع الجيلالي، لكنها وجدت حلّ الجماع صلحا مع الذات ومع الرفقة ومع تهديدات الحياة. حلٌّ سيفتح للآت طريقا جديدا وخيارا جديدا. إنما كان هذا الحل بدون ثالثهما الذي ترك رزمته و آلة دفّه ونجا بجلده فلم يعد يظهر له أثر.

فكّر الروهاني في ملجإ يحمي فيه أنثاه. فكّر في قبو فيلا ماري روز. فقط أن الطريق ما تزال طويلة وتحتاج ليومين أو ثلاثة لكي يصلا إلى مثواهما الأخير الذي رسمه لاستقرارهما الجديد.

هذه المرة، أصبح ذلك الگوال بيد الروهاني. يدق عليه كأنه يبحث عن نفس الجيلالي بداخله. يردد ترانيمه وأذكاره. كان مسيحيا ومسلما. إنه حال المجاذيب، تسكنهم الأرواح وتتلاقى المعتقدات في جذبهم وسلوكهم. هم من يطفئون نار العالم في أفئدتهم. عسى الروهاني يخمد ويرتاح من الصراعات. ثقافة وعاها بلغة الجيلالي وإشاراته. أما عباراتها فلا يحتاج إليها لكي يعبّر بها لأنه لا يحتاج إلى كلام.

*

كان مبيت الليلة الثالثة بعد حادث الجيلالي الجنسي بالقرب من دوار ورزيغة بين شعاب منحدَرِه وأدغاله. كانت الكلاب تنبح بشدة، لكنها لم تكن لتقترب من موقع المبيت والمضاجعة. فعلا، راودت الحاجة الميلودية رفيقها الروهاني عن تجاهله. لفتت انتباهه إلى وجودها. لمست خدّه وشعره. أزاحت ما علق بضفائره من شوائب. نفضت ما يشبه البساط والسرير الذي سيضم معانقتهما. احتضنها. لكنه هذه المرة، وكأن روح الجيلالي ساكنة فيه، كان هو الذي يجأر كالثور ويعوي كالذئب. وكأن التعويض والحلول مقام ضروري في هذه اللحظة.

ابتسمت الميلودية لمكسبها. كانت المحللة النفسانية والمفسرة للحظة. فهمت على أنها أصوات غيرة الروهاني وتفريغ غضبه، أنه طفل يبكي في أصوات حيوانات. رغم أنها تنبّأت بالأسوأ في كل هذا. لكنه عالم جنوني لا يحتاج إلى التوجس من الجن داخله. شخوص ركبتهم أصوات وأمنيات غير التي يعونها ويعيشونها.

في عمقها، أدركت أنها هي الأخرى ممسوسة بهذا الجذب الذي يجرها ويستقطبها إلى قدر هذه الحكاية الغريبة. لم تعد تخاف من أهوال ومخاوف الروايات التي سمعتها في مسار حياتها. عوالم الجن

والعفاريت، الأشرار والأخيار، المؤمنين والكفار، كلها مجتمعة هنا. نسيت أن لها بيتا ومنزلا وأسرة، ابنًا وأحفادا. لو أن ابنها علم حقيقة الحكاية منذ بدايتها، كان ليذبحها من الوريد إلى الوريد. لو أن الدوار والجيران في المدينة كذلك، كانوا على اطلاع بما جرى، كانوا ليحرقوها حية ويمزقون لحمها ويلقونه لتنهشه الكلاب بل الذئاب أفضل. لكنها تعيش في حالة نسيان وفقدان للذاكرة. تأتيها الذكريات مضببة ومعتمة كأنها غريبة عن ذاتها. قد تخاف من الحاضر دون هذا الماضي، من ذئاب هددتها بالافتراس، وها هي بين ذئاب آدمية تروّض المستوحش فيها وتجعل الإبعاد لغيرها.

مستسلمة لقدرها، مرافقة للذي صنعت معه هذه الرواية، متتبعة للآتي، استحمت واغتسلت بعد انقضاء شهوتهما. وحدها تعلم كيف تهد الجبل فتجعله منبسطا مدكوكا. صلت ركعات في قرفصائها. كان الروهاني متتبعا ومتسربا بين شعاب القصب وخلجان الدفلى، يرقب ويراقب، وينتظر انتهاء الطقس. اغتسل هو الآخر. بادرت الميلودية لمشط شعره. استنفر في البداية، لكنه سرعان ما استسلم لطقس حنيني فقده كيتيم في حياة أبويه. من يكونان؟ سؤال لم يجد له جوابا لحد الآن. اجترح به وانكوى طيلة هذا العمر. هو يعلم بأن الأخوات كلهن أمهاته. لكن ذلك الأب في الكنيسة يشعر بأنه ليس بأبيه قطعا. وتشتعل نيران الجهل وثقوب البراكين في عقله وفي شجرة أنفاسه. له عالم صرع يمتلكه أو يعتقله داخل نوبات منظمة ومتفاوتة الخطورة على صحته ونفسه وعقله. يعلم أن عالم الجيلالي أخرجه منها فأدخله في جذب ورقص وتدخين وشرب وثقافة عوالم الذِّكر وتجارب العبّاد والزهاد. عالم يرفع العلاقة ويتسامى بها لتكون مع ربّ السماء. والروهاني يؤمن بربّ السماء،

سواء كان مسيحيا أو يهوديا أو مسلما أو غيره، فهو إلهه الذي يؤنسه في فراغ روحه.

يفتح من جديد رزمة الهارب من فعلته، يخرج ذلك الكُوال ويضعه جانبه. يتأمّله في استدارة جلده التي أصبحت سخامية. تنتبه الميلودية لما يجري فتأخذ الآلة وتمسحها وتجرب إيقاعا خفيفا وسهلا ثم تدعوه للدف عليها. يتناول الروهاني الكُوال ويبدأ في الدف والضرب حتى استوت ضرباته موزونة. حرّكت الرفيقة رأسها كفرس هائمة مع صوت الريح والموسيقى، راقصة بنصف جسدها العلوي فقط. تابع وهو يهلل: الله يا مولانا، الله الله يا الله مولانا، حالي ما يخفى يا الواحد ربي...

أضاءت الابتسامة المتبادلة جوف هذا الليل البهيم. كان العزف والذكر بصوت خفيف جدا حتى لا يسمع البعيد من سكان الدوار. لكن تزايد أصوات النباح وعددها جعلهما يقرران تغيير المكان والابتعاد أكثر.

ها هما على مشارف النفق الطويل الذي يلجه القطار حين مروره. وحينما سمعا دوي صفيره لجآ إلى الاختباء بين الصخور الجانبية مع الجدار، لكن هذه الفتحات كانت صغيرة. هل رآهم أحد داخل هذه الظلمة؟ ربما سائق القطار وربما آخرون... لم يلفت انتباهه مثل هذا التساؤل والتخوف، إنما قدر الآتي ربما سيجعل التساؤل متدخلا في الأحداث.

*

(سعيد الحاكي)

في جلسته المعتادة يوميا، يتأمل بوابة محطة القطار. تشير الساعة إلى العشرين دقيقة بعد منتصف الليل. لقد وصل القطار متأخرا عن موعده هذه الليلة. خمس وأربعون دقيقة، احتاجها كم من شخص لكي يعانق من ينتظره في المجيء. أب داخل سيارته وقد نزل منها ليسلم على بنته التي يبدو أنها طالبة وقد وصلت لتوها من الرباط أو الدار البيضاء. شابٌّ شرب ما تبقى من فنجان قهوته كما شرب سجائر ملأت المنفضة وقد هرول مسرعا لكي يعانق صديقته التي حطّت حقيبتها المحمولة والأخرى المجرورة حتى تضمه في حضنها تعبير شوق واشتياق...

حيوية وحركة زائدتين أمام بوابة القطار التي اعتادت على أصوات سائقي سيارات الأجرة وضغط صفير السيارات المستعجلة والمتزاحمة في المرور عبر هذا الشارع الذي أصبح صغيرا لا يحتمل مثل هذا العدد من آلات التنقل.

حينما يسترجع مقروءه حول تاريخ بناء المدينة الجديدة، والذي رافقه بحث عن فيلا ماري روز، يستحضر بُعْد التوسع الذي كان يراود مهندسي الشوارع الجديدة أيام الحماية الفرنسية. في لحظة

مستقطعة من هذا الشرود الذهني عن التفاعل مع موجة حياة السفر وبوابة محطة القطار، يزم عينيه لثوان معدودة خصّصها لهذا التذكر. يوم كان الشارع فارغا، ويوم كانت القطارات العابرة بالمحطة معدودة على رؤوس الأصابع، كذا عدد العربات. لكن حسرته كانت على خضرة سادت ثم انعدمت. رغم سواد الليل الذي غاب عنه قمر السهر فلم تسعفه سوى مصابيح الشوارع المزينة لضغط الحلكة الملتحفة بالفضاء، كان إغماضه لعينيه استرجاعا لآثار باقية ولصور مشاهدة ولشهادات مسجلة حول عدد الفيلات التي كانت تعمّر الشوارع الجانبية والعديدة للمدينة الجديدة هنا بمكناس، بحمرية أو باريس الصغيرة. هو حلم الفرنسيين الذي اقتلع أشجار الزيتون التي كانت تعد بالآلاف، والذي هندس شوارع مدينته الجديدة. حلم إمبراطورية أرادت تجسيد خريطة توسعها وإنجازاتها باستنبات نبات جديد وشجر متنوع من جميع جهات العالم، ومعالم عمرانية قد تطفئ الحنين المشتعل نارا إلى ديار أو إلى ذكريات.

هي ذات سعيد الحاكي التي يتفاعل فيها كل هذا الخليط وهذه الثقافات، لا يستعجل تحليلها سريريا بقدر ما يعمل على العيش بها والتناغم مع رصيدها متقلبا بين الثقافات والسلوكات والميولات. كغيره من أفراد جيله والأجيال التي تقاطعت هذا التعدد الثقافي واللغوي والسلوكي، يتأرجح بين ألوان وأذواق واشتهاء وقيم وانتماء.

الآن، يفتح عينيه بعد هذه الثواني السرمدية التي لم يغِب تفكيره معها بقدر ما أنه مارس لعبة الظهور والتخفي بين مرايا وشظايا هذه الذات. حقه في متعة النظر. في جلسته هاته بمقهى المحطة الصغيرة، لم يكن ينتظر وصول أحد او ضيف أو خليلة. طقسه

الذي اعتاده كلما أحب السهر إلى ساعة متأخرة من الليل. يأتي إلى هذه المقهى بعد تناول وجبة عشاء وجولة بين الشوارع الكبرى للمدينة الجديدة. مدمن على المكان، كما أن المكان أصبح مدمنا عليه. فقد اعتاد العاملون بالمقهى وبعض زبائنها حضورَه. وكذلك رجال ونساء الشرطة الذين يتناوبون على مركزهم هنا بجوار محطة الأمير عبدالقادر للقطار.

*

كانوا ثلاثة في جلستهم بجانب الرصيف، مستديرين حول طاولة مشروباتهم. كان كاغد حَبّ (الزريعة) أو بذور دوّار الشمس التي يقضمونها قد شارف على التخلص من نهمهم فيها. لكن أحاديثهم كانت تتسلل مع أصواتهم عبر فتحة النافذة الزجاجية الكبرى للمقهى.

بين طقوسه المعتادة في جلسته وتتبعه للآخرين المؤثثين لمشهده استحضر ما يعرفه عن بذور دوّار الشمس. سافر مع تسمياتها المتعددة وثقافة المجتمع حولها كما أحكام القيمة التي تحوم ضدها. استل ذهنه من هذا الهذيان وتابع مشاهداته وسماعه لما يحيط به.

كانت جلسته تعلو جلستهم بدرجة طلعة درج باعتبار انحدار الزنقة التي تنفتح على شارع الأمير عبدالقادر والتي تقابل بوابة محطة القطار الصغيرة. أخبار أَمْنية وأخرى مهنية أو اجتماعية. إنما ما أثار انتباهه هو تخصيصهم لفيلا ماري روز بالتناول المستفيض كحدث ومكان وجريمة.

. أُنظر إلى هؤلاء (الشمكارة)•. لم يجدوا حلا لمشكلتهم. تكاثر عددهم رغم غياب أسماء كثيرة قديمة منهم. المشكل أن عمليات الحفر في فيلا ماري روز كشفت عن قبر جماعي لثلاث جثث، واحدة قديمة عبارة عن هيكل عظمي، واثنتين عكسَها ترجعان إلى عهد قريب.

.كم تقريبا ؟

. بحسب المعاينة المختبرية الأولية يقولون أنهما تعودان لعشرة أو خمس عشرة سنة.

.وأنت ألا تعلم بالتحديد ؟

. وهل قالوا لك بأنني من الشرطة العلمية ؟ أنا شرطي، رجل أمن مثلي مثلك.

*

ينهض مستعجلا وكأن قطاره قد أتى ووصل. لكنه يستعجل الذهاب إلى ناصية الشارع ليقف ويتأمل القنطرة كما الحفرة الكبيرة المتبقية من فيلا ماري روز. فعلا، تمّ هدمها بأكملها. آخر عهد له بها وبرؤيتها وتأمله لها يعود لبضعة أسابيع. تركها على حالها الذي أغلِقت معه النوافذ والأبواب ببناء آجور وإسمنت منعًا للمشردين من اقتحامها واتخاذها ملجأ لهم.

•لفظ بالعامية المغربية ينعت به بعض المتشردين الذين أصبح حالهم إدمانا وهذيانا.

فعلا، كان همّه خلال هذه السنوات هو تتبع ظاهرة المشردين من الأطفال والنساء والرجال الذين يعيشون الليل يقظة أمام محطة القطار، والذين نادرا ما يظهر لهم أثر بهذا العدد وهذا الحجم خلال النهار. قد يشاهَدون متفرقين زمرا صغيرة في ثلاثة أو أربعة أو واحد فقط. يومهم بحثٌ عن طعام وشم كيس بلاستيك مملوء بمادة (السيليسيون) أو مواد أخرى مخدرة للدماغ ومغيبة لوظيفته. لكن جلسة هذه الليلة جعلته يلاحظ تكاثر عددهم.

كان تساؤله الدائم حول حياتهم التي اتخذوها داخل الفيلا المهجورة. يطل من نوافذها الفارغة من الإطارات أشخاصٌ وأطفال وكأنهم ضحايا حرب مدمرة .هم وهذه البناية المخربة. يسمع أصواتا متنافرة تخرج بصداها عبر فتحاتها. مرة صراخ ألم وضرب، وأخرى أصوات نشاز تغنّي ما تغنّيه. وفي بعض لحظاتِ مروره يكون هناك جري يوقع دبدباته على جدران البناية. لكن ترجمة مجهول ما يقع داخليّا في هذه الفيلا الغريبة جدا، تُجسده هذه الحياة الليلية التي يحيا فيها أقوام الليل حتى يتركوا لأقوام النهار فرصة استراحتهم. يتخيّلهم كائنات فضائية تخرج وتعيش حركتها ليلا على غير معتاد الأنام الذين ينامون ليلا ويتحركون نهارا.

تستكين الشوارع من حركة السيارات وأناس أنيقين يتنافسون على آخر صيحات الموضة، والذين يبحث البعض منهم تحت ضوء النهار عن مصالح إدارية واقتصادية ومالية بين الإدارات والمكاتب، والبعض الآخر يبحث عن المتعة والاستهلاك. لكن آلاما ترافق نظرات البعض الآخر. فخلال النهار ومع ساعاته المبكرة تلاحَظ الصفوف الطويلة أو القصيرة للذين أو اللواتي ينتظرن عيادة طبيب أو طبيبة. قد يمر شيخ كبير هرم مستندا على ساعد ابنته أو ابنه. وقد

تسمع أنينا أو دعوات رضا مرافقة. قد تأتي عائلة بأكملها مع هذا المريض فيأخذ شكل التضامن تلك الهالة من الوقوف الجماعي خوفا من الموت ومن الألم ومن الانقراض.

يؤلمُه كل هذا، ويراه متجسدا في نوع الإنسانية الرجِيمة التي يترجمها السلوك. هذا الشيخ المريض المار وقد توقّف أمام باب عمارة أو مقر بنك لا ليَلِج البناية أو يسحب نقودا، وإنما لكي يخرج بعض القطع النقدية من جيبه فيتصدق بها على طفل أو شاب نائم فوق درج مرمري في عراء الشارع يفترش كارتونا ويلتحف بآخر، جاعلا أطراف رجليه في تقابل مع متشرّدٍ آخر مثله. حال لباسهما أو لباسهم تدل على إهمال مطلق متسخ وممزق. المحظوظ منهم أو الذكي يغلّف جسده خلال نومته في العراء بقطعة بلاستيك تكون غطاءه الفريد والغريب. وحينما تراهم مستيقظين يتَحَدّوْن الحياة بالغناء واللعب ومجاراة حركة الناس عسى هؤلاء يلتفتون برحمة صدقة ومساعدة لهم.

كل هذا يتأمّله ويقارن داخله بين حال الإنسان وقد خانته الصحة وحال آخر وقد لفظتْه الكرامة لكي يعيش دون مستوى إنسان. هكذا سيقارن خروج نوعية بشر من العلب الليلية أو الفنادق الساهرة مع هذه الفئة المشرّدة التي لم يستطع المجتمع الحسم في ظاهرتها ومعالجتها. هم (شمكارة) بلغة الجميع. وكأنهم مخلوقات تحت أرضية يغضون البصر عن رؤيتها متسللة فوق أرصفتها وخيال ظلالها. هواؤهم وشمسهم وقمرهم مختلف عن ذلك عند الآخرين. ليْتهم كانوا من جنس الجن حتى يريحوا الضمائر من كل وخز أو تأنيب.

كل هذا شدَّه لمراقبة الفيلا لمدة سنين ومراقبة احتلال الشمكارة لها، وكيف تتطوّر الظاهرة. لم يستطع إيجاد حل لتناولها ومعالجتها. لم يكن مخرجا سينمائيا ليتكلم عن الظاهرة في فيلم، مثل ما قام به صاحب فيلم (علي زاوا) *من إخراج نبيل عيوش سنة 2000.

هو نفسه سعيد الحاكي، مثل آخرين قد يكونون مهتمين بتتبع الظاهرة، تتمزق حواسه كما ضميره بهذا الذي يراه. قد يضحك في سخرية أو تهكم، لكنه سرعان ما ينقلب عليه سحره فيصبح مملوكا في دواخله بحالهم وأنينهم. فكيف يخمد توتراته في كل هذا.

يعلم بعملية إعادة البناء التي خضعت لها مجموعة من الفيلات بالمدينة الجديدة، والتي تحوّلت إلى عمارات سامقة انمحت معها كل الفضاءات الخضراء التي كانت تشكل حدائق جميلة لهذه الفيلات. لكن حسرته الآن على ذهاب دليل مادي على تاريخ منسي لهؤلاء (الشمكارة)، ولهذه الفيلا التي سكنته بتسميتها وتاريخ بنائها وبالذين عمّروها حياة وأثرا. تنفلت منه كصورة حيّة، ويعض لسانه ندما على عدم التقاطها قبل هدمها.

يقترب منه الحارس الليلي للسيارات بزنقة الفيلا ويبادر إلى اقتحام تأمله:

.لقد أوقفوا أشغال الحفر والبناء للعمارة الجديدة.

.ولماذا؟

كان الحارس ينتظر مثل هذا الحوار والسؤال حتى يوَقّع ثقافة معلوماته في تواصله مع الآخرين، عساه يستفيد جديدا هو الآخر

من محاوره الجديد كذلك. لكن سؤالَ (لماذا) جعله سيد هذه الصدفة لكي يصبّ كامل روايته من جديد. يركز بصره في وجه محاوِرِه وكأنه يقرأ قسماته. قراءة تحدث الريب في من يقف أمامه لأول مرة.

لكن الوجهين أَلِفا بعضهما البعض، رغم عدم التواصل بالكلام من قبل. من أعماقه صعد نفَسٌ يحمل تساؤلات كما تذكّر معلومات. وخلاله استحضر في دواخله: (هو نفسه الذي سأل البقال الأول والثاني). ويتذكّر: (نفس النظارتين، والجاكيت بلونها البني الفاتح، والشال الأزرق الفاتح كذلك. سبحان الله هناك من البشر من لايغير من لباسه شيئا إلا نادرا. وهناك البعض الآخر الذي يتحوّل كالحرباء مع كل فرصة مرور. كل مرة في زيٍّ مخالف لما سبق).

لكن سعيد الحاكي لم يستبن ما يتذكره محاوره. فعلا دخل إلى الدكان الأول وافتعل شراء أوراق نظافة بدرهمين رغم أن البقال لم يفِدْه بمعلومة حول ما يبحث عنه ويسأل:

. التحقتُ بالدكان قبل عامين فقط. دعني أسأل من كان قبلي في الموضوع. لقد عاد إلى الجنوب إلى بلاد سوس، وحينما يزورني سأسأله عن اسم الفيلا ومن كان يسكنها.

وفعلا خرج منه وولج الدكان الثاني. والغريب أن صاحب الدكان الثاني كذلك كان له نفس الجواب:

. لم آتِ إلى هنا إلا قبل سنتين فقط.

اشترى سعيد الحاكي منه أربع علب يوغورت بعشرة دارهم وانصرف. إلا حارس السيارات الذي كان واقفا في إحدى ممرات الدكان الأول الضيقة، والذي أطلّ على السيد سعيد وهو يقصد الدكان الثاني ليطرح نفس أسئلته، لم يفوّت ما وقع و ما تم الحوار حوله. وطبعا، لن ينفلت فضوله ويتركه في حاله، خصوصا وأن (أصحاب الحال) من رجال الأمن، كم من مرة يقفون بسيارتهم البيضاء ذات الخطّين المزيّنين لها بالأخضر والأحمر والتي تلقّبُ عند البعض ب(الواشمة)، ويسألونه عن كم من موضوع صغير أو كبير وعن التفاصيل المهملة في يومي الزنقة الرابطة بين شارع محمد الخامس وشارع الأمير عبدالقادر والمؤدية مباشرة إلى عبور القنطرة فوق سكة الحديد.

يسأل سعيد الحاكي عن الفيلا وعن أصحابها الذين كانوا يقطنون فيها. يمتحن معلوماته، وحينما وجدها ضعيفة ومنعدمة، أخذ على نفسه أن يبحث ويسأل قدماء الحي ومراوديه. أسعفه موظف متقاعد منذ مدة والذي يسكن بإحدى فيلات منحدر الشارع المحاذي لممر السكة الحديدية. ضحك حينما سمع إجابته وتعليقه قبلها:

. أنت ما زلت صغيرا لم تعرف عن هذا الموضوع شيئا. كان هنا شخص عمل في الداخلية أيام الجنرال أوفقير، يقطن مع أسرته. كان قائدا معزولا في إقامة جبرية. ربما هي غضبة أوفقير في بداية السبعينيات. لم يبق هنا أي فرد من العائلة. كلهم رحلوا. ها هي الفيلا خربة يسكنها (الشمكارة). لو أدركتَ (أمي طاهرة) التي كانت تبيع السجائر بالتقسيط قبالة الفيلا لأعطتك تفاصيل أكثر. لكن، يبدو أن الكل كان يرتاب منها وفي اشتباه زرعها كعين لا تنام حراسة للفيلا وللقائم قسرا وإجباريا فيها، من دخل ومن خرج.

يلاحظ الحارس (محمد) تأمل سعيد الحاكي للأطلال الهاربة إلا من الذاكرة التي سجّلتها دون أن يجعل المعلومات تنفلت أكثر من لسانه مجانا. ولماذا سيخبره بها زيادة ؟!

يصب الماء في الزيت الساخن:

.وجدوا فيها أشخاصا مقتولين، امرأة وطفلا ورجلا طويلا. كل شيء أصبح مؤجّلا الآن حتى يجدوا حلاً لُلغْزِ هذه الجثث أو الهياكل.

يسمع دق الكُوال وصوت امرأة عجوز آتيين من جهة شارع محمد الخامس. يشير لهما الحارس بإيقاف ضجيجهما:

.ألا تعرفان أنه الليل والناس تنام فيه. أما كفاكما النهار لكي توزعا فيه ضجيجكما وصراخكما ؟

.كيف حال سي محمد ؟

أجابه الحارس وكأنه لا يبالي لتعليقه واحتجاجه الذي صدر منه قبل قليل، ربما اعتاد تعليقاته المتكررة، فانتقل من اللوم إلى رد السلام والجواب على السؤال:

.الحمد لله. (الله يعفو علينا وعليكم).

.هذا الحال بغاه مولانا. واللي جات من عنده ما ترد.

يغبط محمد نفسه حينما يرد عليه الروهاني السلام. ربما الوحيد الذي يناديه ب(سي محمد). الجل يجعل النداء جافا سوى ما يكون من استثناءات حينما يكون أحدهم أو إحداهن على عجلة وفي حاجة لمعلومة مهمة أو خدمة طارئة. لكن بمجرد ما تنتهي الخدمة

يعود جلهم لقطع دابر سيادته، حتى من نبرة صوتهم تتغير: (وا محمد !).

يتابع الزوجان المسنّان طريقهما. ربما سيذهبان إلى فضاء محطة القطار أو إلى التسوّل أمام مقهى المحطة الصغيرة. تتابعهما عينا الحارس حتى عرجا جهة اليمين حيث ذهب تخمينه، ويعود لحواره مع هذا الشخص الذي تذكّره جيدا وبدا مألوفا عنده بعد أن استغربه في البداية. سبق له أن رآه بالمقهى أو بين هذه الشوارع والأزقة المتقاطعة، بل إنه الشخص الذي سأل صاحبي الدكانين. من جديد يؤكد تذكّره: (فعلا، إنه هو). كيف لا يعرفه ومجتمع حمرية معروف من ألِفِه إلى يائه، بموظفيه وأطبائه ومحاميه ومهندسيه، بساكنته وشبابها، بحاناته وفنادقه، بمجانينه ومشرديه، بجهاز أمنه وكل الذين يرتادون المدينة الجديدة في اليومي غالبا:

(.هذان المسنان، يُحكى أنهما أتيا من جهة الغرب وأن هذا الرجل ولي من أولياء الله. تحكي المرأة معه بأنه صاحب ضريح وبركة. لكن الغريب هو وقوفه أمام ورش الهدم والحفر لهذه الفيلا التي نتحدث عنها وذكره لأشعار ربانية أمامها. هو يغني وهي تجذب معه وتردد لازمته:

(.الله يا مولانا، حالي ما يخفى عليك يا الواحد ربي.)

. تقف جماعة الشمكارة حولهما في ترديد وغناء ورقص فلا تنفع معهم إلا دورية الشرطة في تفريقهم وإبعادهم. لقد اتخذا كوخا ينامان فيه قرب نفق السكك الحديدية المؤدي إلى محطة القطار

الكبيرة. يجعلان كلبا يحرسه إلى أن يعودا. الغريب أن هذا الشيخ حينما تسأله يجيبك: نعم الروهاني. ماذا تريد ؟

. يحكي لنا قصته الغريبة: أنا ربّاني النصارى ورضعت حليب الرب ولقيت طريق الحبيب النبي العدنان.

لا نفهم قصده في كل هذا. يتكلم بالفرنسية بعض الكلمات. يذكر الله. ينفق من ماله الذي يكسبه. تجد في دائرة حزامه كل مقتنياته من لحم وخبز وسكر وشاي... حتى النقود يجعلها بين ثوبه ولحمه. لا ندري من أين تأتيه كل هذه البركة. يُناول كلبه أفضل القطع التي يشتريها من اللحم. يترك للقطط حظا منها. حتى الفئران تعيش معه في كوخه. يتحدث إليها وكأنها تفهمه. تنتظر ما يعطيه لها وتنصرف. يقولون أنه عندما يدخل للكوخ ينزل درجا لقصر يسكنه ويغير من لباسه وهيأته. ربما عنده كنز ينفق منه. لا ندري من أين تأتيه كل هذه النقود. حتى الجولة النهارية التي يقومان بها إلى ساحة الهديم ثم باب الجديد والشيخ الكامل، لا يمكنها أن توفر مالا بأوراق نقدية مهمة. تصوّر أن بعض السيارات الفاخرة تأتي وترسو بجانب الرصيف منتظرة ظهوره، تتقدم فتحاول أن تسلّم عليه، تطلب منه بركة ودعاء. قد يجلس متكئا على الجدار، منصتا لطلباتهم، فيجيبهم بما يريدون سماعه وينصرفون. قد يرفض الكلام معهم أو مصافحتهم. يقول البعض أن هؤلاء يأتون من القصر من العاصمة بأوامر، فيعطونه من النقود ما يستطيعون. قد تسمع (زِدْ) !، وقد تسمعه يرد في غضب: ذاك وسخ الدنيا، ارمِه في الحافة !).

يبدو أنه لم يستطع كبح حكيٍه أمام هذا المتعطش للمعلومات. لكنه سرعان ما يعتذر عن الاستمرار في الحوار والكلام. هناك سيارة

ستغادر رصيف الزنقة. يستعجل درهمه أو درهميه، محصوله من واجب الحراسة. يختم كلامه وهو يشير إلى صدريته المنعكسة مع أشعة المصابيح بلونها الفستقي الفاتح والأسود اللامع. يداه لا تفارقان صفارته في اليسرى وسيجارته في اليمنى. خدّان مجعدان مثل جبهته. آثار كدح ليلي من أجل كسب لقمة عيش. يغيب عن نظره في انشغال آخر.

حينما يعود سعيد الحاكي لمقهاه من جديد يطلب (براد شاي) ساخن من أجل جعل الدفء لأمعائه. كفاه فناجين قهوة، فقد تناول منها أربعة خلال هذا اليوم. وجد كرسيّه فارغا، وكأنه ينتظره ليقتعده من جديد. خلف النافذة الزجاجية، بقي شرطيان في لباس مدني، بينما لم يرَ الآخر، ثالثهما. في الرصيف المقابل بدأت جوقة الروهاني والحاجة الميلودية. آخر رحلتهما لهذا اليوم وقد اقتربت الساعة من الثانية بعد منتصف الليل. يصرخ رجل الأمن البدين في وجههما لكي يغادرا ويوقفا ضجيجهما:

.الناس ناعسة، اذهبا من هنا للجائحة التي تضربكما !

بجانب طاولة سعيد الحاكي يجلس شخص متوتر الحركات، يدق مفتاح سيارته فوق الطاولة. ينظر إلى الساعة اليدوية كل حين. يرن الهاتف المحمول فيسارع إلى تلقي المكالمة. توتُّرُهُ جعل محيطَه داخل المقهى يسمع صوته وحواره:

.وا المسخوط خرجت على عائلات. السيد أرسلته للحبس وأنت في مقامك تنعم بالمال الحرام.

بدا أن (براد الشاي) الذي وضعه نادل المقهى أمام زبونه المعتاد (السي سعيد) ذو أهمية كبيرة في هذه اللحظات. سيتأنّى في تبريده بين البراد والكأس. سيتمهّل في ارتشاف جرعات منه مع كل وصلة حوار لهذا الذي يتفاخر بإسورته الذهبية وساعته اليدوية الفاخرة. حتى من مدِّ رجليه في شكل مثير يعترض الممر بين كراسي المقهى واسترخائه كأنه بمفرده فوق شرفة، يداه ممدودتان إلا ما كان من تحوّل يمينه لحمل الهاتف والجواب على هذه المكالمة. ندبة عريضة تبدو على جانب عنقه. لا يكترث لمن حوله. عوامل تدعو لأخذ المسافة معه، فلا أحد يجرؤ على اقتحام شؤونه وكلامه المسموع بفضولٍ ما، كيفما كان.

يتذرّع سعيد الحاكي بكأس شايه بين يديه ليبقى مركزًا على حوار جاره في كرسي المقهى هذا. يستنتج أنه وسيط عقاري. لكنه لن يكون مثل أولئك البسطاء الذين يتوسطون بين المكري والمكتري.

(. تلك الورقة التي تثبت الملكية افتضح أمر تزويرها. الآن الكل متورّط ومتهم. لقد جاء أفراد عائلة صاحب الفيلا من فرنسا. هم أحفاده على ما يبدو، ورفعوا شكاية بل دعوة قضائية. حتى المحامي تكلّفت به القنصلية حماية لمواطنيها. وأزيدك أمرا: هناك جمعية كذلك رفعت دعوى. قالوا إنهم يحمون التراث الفرنسي بالمدينة الجديدة، والعمراني منه على الخصوص. أراك بمجرد ما تطأ قدماك المغرب ستكون في ورطة مباشرة كذلك. والمشكل أنهم فرنسيون وأجانب، لن يرحمك أحد في التهرب من ورطتك معهم. لو كانوا مغاربة لهان الأمر وسهل إيجاد حلٍّ...

الحلّ الآن هو أن ترجع النقود التي أخذتها عمولة حتى نساعد بها على حل هذا الملف...).

...

(واه ! مستحيل !خمسين مليون سنتيم خسرتها في شهرين. حتى لو كنت روكفيلير. يمكن أنك مدمن قمار. هذا التفسير الوحيد، أو إنك تتلاعب بنا وتعتبرنا مغفّلين. دعْنا من كل هذا. تعلم أن الصفقات المستقبلية فيها ربح أفضل كذلك. لذلك أرجِع المال لكي يحلّ المشكل، أفضل لك ولنا... ألو؟ ألو؟... الله يلعن والديك آولدالحرام).

ويتحوّل لون بشرته وتبدو حمرة فوّارة فوق خدّيه فيتكلم مع نفسه جهارا دون اكتراث لمن يسمعه داخل المقهى:

(. هؤلاء البشر مجرمون ولا يشبعون أبدا. يتاجرون في الحي والميت..).

يتحول بنظرته للجالس بجانبه في المقهى. تبدو عيناه حمراوان بحيث استطاع سعيد الحاكي استنتاج أنه مخمور، لكن حاله تبرهن على ذهاب حالة الثمالة وبقاء حالة العياء المصاحب لها.

الساعة تتجاوز الثانية والنصف صباحا. رأى هو الآخر في سعيد الحاكي إحدى شخصيات حمرية أو المدينة الجديدة المألوفة. سبق له أن صادفه في مجالس متنوعة، هكذا خمّن، لكنهما لم يسبق لهما أن تبادلا الكلام. فالسيد عباس البيضاوي، هكذا تسميته التي سيتعرف عليها كل الجالسين بالمقهى، وسيط عقاري منذ عقدين

ونصف من الزمن بالمدينة الجديدة حمرية. متزوج وأب لولدين، إحداهما بنت وقد زوجّها منذ سنتين وهو جد الآن. مثلها هو كذلك، فقد تزوج صغير السن من بنت عمه.

يتابع سعيد الحاكي حكايته، ويتأمل ملامحه. يعلم أن الليل فتّاح الأسرار وصاحب الأخبار. هو الليل غريب الأطوار، يلاقيك مع منبوذي النهار ومنتظري الأسفار. يستغرب ويضحك باطنيا للازمته بقافية الراء، ويتابع بابتسامة صفراء حديث عباس البيضاوي:

(. تصوّر أن هناك أكثر من640 فيلا تركها الفرنسيون بحمرية. الآن بقي منها حوالي المائة وخمسون، وجلّها تدور حولها نزاعات قضائية. السيد أدخلوه للسجن بأوراق مزورة. والمورطون فلتوا من المحاسبة. لم يجد القاضي بمَ يبرّر إطلاق سراحه رغم معرفته بأنه ضحية لنصب كبير. ولا يمتلك المال الكافي لدفعه لأصحابه الضحايا.)

يستدير السيد عباس لأخذ هاتفه المحمول بين يديه فيلاحظ سعيد الحاكي الوشم المطل من ياقة عنقه بمحاذاة الندبة. يستنتج بان محاوِره ليس بالبريء في ما يحكيه، لكنه يعلّق كل ذلك ويتركه مجرد تخمين. لم يردِ لليلِه أن يتلوّث بتساؤلات مقلقة. في نفس الآن يسمع طرقا بأظافر متسخة على نافذة المقهى الزجاجية. يلتفت فيلاحظ عينين وقد حجبهما شعر كثيف وضفائر غزاها بياض الشيب. الأسمال رغم أنها رثة ولا يساعد الضوء الضئيل على تمييز ملامح صاحبها إلا أنها تدل على أن صاحبها هو الروهاني الذي ذكره حارس السيارات في زنقة (الحسن بنعلي) والذي مرّ أمامه مع مرافقته. يجعل مزلاق النافذة ينفتح ليسمع ما يريده الروهاني:

.العشاء الأخير.

يبتسم للجملة فتعجبه عبارتها وتعبيرها. وجدها جملة أدبية تحمل دلالاتها، ما جعله ينهض من كرسيّه ويخرج ليقابل الروهاني في حوار وتلبية طلب. يعيش السيد سعيد على هذه الإشارات الملهمة في ما يراه وما يقرؤه. تفتق فيه روح الكتابة والإبداع كما فضول المعرفة.

جل الأنام الواقفين والجالسين انتبهوا والتفتوا لما أقدم عليه الروهاني. عادة يكون في هذا التوقيت قد ذهب لحاله ولنفقه الذي لا يعلم إلى أين يقوده ليلا وسرًّا. يدعوهما سعيد للانتظار حتى يحضر لهما وجبة يأكلانها.

يستغرب للصدفة التي أجّلتْ تعرفه على شخصية الروهاني كل هذا الوقت. أكيد هناك تاريخ وحكايات تحملها مثل هذه الشخصيات أو الشخوص. طلب من صاحب الشواية في المطعم المجاور للمقهى أن يعدّ لهما خبزتين مستديرتين مملوءتين بلحم مشوي. طلب لهما مشروبا، وبقدر ما ابتسم نادل المقهى لمبادرته وسخاء استهلاكه بقدر ما امتعض لكون المستفيدين ممن ينفر اقترابهما من دائرة المقهى. صراع مستخدم المقهى اليومي مملٌّ مع (الشماكرية) و(الهبّال) و(أصحاب الحال)، ومع المتسولين والنشالين. حتى زبوناته من عاشقات الليل والمستريحات بين المحطات لا يريد لهن هذا التشويش الذي يسببه هؤلاء. تجد المتسوّل مخدَّرًا لا يعي تصرفاته يتقفى خطوات إحداهن محدِثا الرعب في نفسها فلا تتخلّص منه سوى بفتح حقيبتها ومناولته دراهم لكي يبتعد.

لم يكُنْ سعيد الحاكي مدركا لمعرفة الروهاني المسبقة به. كم مرة رآه واقفا ومتأمّلا مرور قطارٍ من فوق القنطرة المقابلة للفيلا. كم مرة شاهده واقفا على أطلالها قبل أن تُهدَم. وحتى من سؤال السيد سعيد الحاكي عمّن كان يسكن الفيلا خلال مرحلة الخمسينيات من القرن الماضي أو بعد خروج المستعمِر الفرنسي من المغرب، وصلتْه شذرات الحكاية وأوصاف اللباس والجاكيت وعادات الحضور في شارع المحطة ومقهاها... فهل يكون قصدُ الروهاني متعمّدًا في طلبه هذا العشاء الذي اعتبره عشاء أخيرًا؟ يبتسم لسرّه الذي لا يعلم خيوط تفاصيله إلا هو، حتى ما كان من شخصية سعيد الحاكي الحاضرة الغائبة في هذا الشارع خلال هذه المدة، لكنه يعلم بأن تاريخ المكان يمتلكه هو كما تمتلكه مذكرات ماري روز في جزأيها وصندوقيها وسحر عطورها.

يوزّع السيد سعيد الحاكي ابتسامة تواضع ومهادنة للجميع، حتى لرَجُلَي الأمن الجالسين بمسافة الثلاثة أمتار عن وقفته التي جعلها في سماعه لما يريد الروهاني أن يكلمه فيه. وقد كان ذلك ما زاد الفضول عند بعضهم وأخذ على نفسه متابعة واقتلاع بعض ما يجري في كلام الروهاني. معجزة أن يتحوّل إلى إنسان يتحاور مع الناس. حتى الحاجة الميلودية التي بدا على عينها اليسرى أثر جلالة وعمش فلم تعد ترى إلا بعينها اليمنى، ولم تعد لها من قوة إلا ما تجتره كخطوات متعثرة في جولة الروهاني اليومية، ظهر عليها الفضول والاستغراب. أي أسرار سيلقيها في جعبة مسمع هذا المتبرع الكريم. الحاجة الميلودية تعلم أن الروهاني يفتح قلبه وابتسامته لكل من وجده كريما، لكن، ليس إلى هذا الحد الذي يفرغ فيه كل كلامه

مجترا الماضي الشخصي وتاريخ المكان والفيلا وقصة الجثث التي وجدوها فيها.

وكأنه عدل داخلي يجعله يفرغ الحقيقة لمن يستحقها. وكأن الروهاني هو الذي كان يتتبع ويقتفي أثر سعيد الحاكي، وهذا الأخير لا عِلم له بما يقع. تساءل سعيد الحاكي حول اختياره هو بالذات. كيف له أن يبوح له بكل هذا ولا يكترث لخطورته. يمرّ النادل بالقرب من سعيد وينبهه:

.احذر يده فإنها تخونه.

لا يبالي لتحذير النادل. يستمر في الاهتمام والاستماع:

. المرأة في الفيلا، ماري روز. زوجة قبطان ومهندس. تعشق الرسم والموسيقى والرقص. هل سبق لك أن راقصتها ؟

يبتسم سعيد ويضمر اتهامه بالجنون. لكنه يجيب بهدوء:

.لا، ليس بعد.

. كانت تشعر بالملل فتترك زوجها بيير دوفيرمان وتذهب عند الرسام ويليام. لذلك قتلها بيير. الصراع بين عطرين وزجاجتين، بنت حوّاء وعبير الزمن، Fille d’Eve et L’air du temps. هل تعلم هذا ؟

تخرج أنفاس مزمجرة من منخريه وتجحظ عيناه للتعبير عن جدّية الكلام. يهمس رجل الأمن في أذن صديقه: ها هو هذا المخبول يخربق في كلامه.

يخاطب الروهاني الحاجة الملودية:

.كُلي. هذا العشاء الأخير.

تتناول وجبتها وتضع مشروبها فوق حافة الرصيف بينما تفترش إسمنته. يتركهما الروهاني مُنبّها: لا تذهب بعيدا سأعود.

ظهرٌ وقد تقوّس. أسمال وقد نالت من هذا الجسد فانتقمت منه شر انتقام في عريٍ بادٍ للأطراف وأثر روماتيزم يشل الحركة كل حين. قدمان وقد تشققتا لكنهما سميكتان ومتحولّتان لطبقة صلبة لا ينتعل معهما الروهاني حذاء أو صندلا. يردد في مشيته كلاما جديدا وغريبا، ربما قد سمعه من أحد المجاذيب الذين يعمل على الالتقاء بهم كلما سنحت له الفرصة بجوار ضريح الشيخ الكامل:

.الحال ولد الحال، دوام الحال من المحال.

كانت عبارته التي لازمته ورافقته ذهابا وإيابا، وخلال ذلك عاد السيد سعيد الحاكي لداخل المقهى ليستبين كلام النادل. سمع كلامه بانتباه واستغراب متجدد، ما دامت هذه الليلة هي ليلة الغرائب والعجائب:

(.لقد سبق له أن صفع امراة سخرت من حاله. وكسّر يد مسافر واقف أمام محطة القطار. اعتقله رجال الأمن طبعا، لكنهم بعد ذلك أطلقوا سراحه. قالوا إنه مريض عقليا وليس له دواء. طلبوا من الجميع أن يتركه في حاله. أحد الزبائن حينما سمع قصته وقد حكيتها له قال بأن هذا المرض يسمى متلازمة اليد الغريبة يكون معه تلف في المخ. ذكر مصطلحات بالفرنسية أو الانجليزية لم

أفهمها ولم أتذكّرها. ربما يسكنه شيطان أو جن. المهم أنه خطير ولا يقترب منه أحد.).

عاد الروهاني يحمل صندوقا خشبيا فقدَ كلَّ شكل لألوانه. ناوله سعيد الحاكي وأخذ الحاجة الميلودية من يدها واتخذ سبيل المنحدر الذي تغيب معه الرؤية وراء القنطرة. لم تعد المنافذ سهلة من أجل الهبوط إلى سكة الحديد، فقد سيّج مكتب السكك الحديدية جلها ومنع كل ولوج للأشخاص دون بوابات محطات القطار، إلا ما كان من طريق الروهاني للنفق والذي يخترقه من جهة قنطرة طريق فاس بشارع الجيش الملكي خلف جدار مرفإ للسيارات الجديدة ولمقر حزب ما تزال ملصقة تسميته على لوحة في الجدار.

ما كان مجالا أخضر للطبيعة والأشجار والمسالك بين الربوات المنحدرة، أصبح أحياء فيلات وعمارات. بعد ذلك، سلك الروهاني والحاجّة طريقهما بعيدا عن النفق مرورا بالقرب من مصحة ثم مؤسسة تعليمية خصوصية ثم وصلا لأرض خلاء فارغة من كل نبات أو عمران. جلس ليستريح وطلب منها أن يناما هناك أو هنا في هذا الحال.

*

وضع السيد سعيد الحاكي صندوقه المُهدى له بجانبه. طلب وجبة أكل مشوية، بعدها نادى على فنجان قهوته الخامس. الساعة تشير إلى الرابعة إلا أربع دقائق تقريبا. أصبحت الحركة قليلة والحضور على رؤوس الأصابع في المقهى. لم يرِد سعيد فتح الصندوق أمام الحاضرين. سيحتاج لذلك حين عودته لشقته التي يسكنها. يرى فيه ما رآه في قناديله التي أثارت فضوله فيما سبق. تلك القناديل الرومانية التي صرخت في روحه واستعارت صوته لكي ترافِع عن مصيرها وعن سرقتِها من أصحاب ساديات في غصب المال وامتلاكه. لقد عاش سعيد الحاكي تجربة استنطاق واتهام ومراقبة مستمرة بسبب تتبعه الفضولي وتحقيقه غير الرسمي في قضية سرقة آثار رومانية هي تلك المصابيح التي لم يظهر لها أثر بعد. تورط في ملف التحقيق حول جريمة قتل ذهب ضحيتها تاجر (بازار) يبيع ويشتري في التحف والنوادر كما أنه يتعامل بالربا في تقديم سلفات وديون...

بعد رشفتِه الثانية والتي نعِم معها بهدوء الليل الجميل في ثلثه الأخير وبداية زرقة لازوردية تتشكل في لوحة سماوية خلف صف النخيل السامق والشاهق والمتعالي على سور المحطة والبنايات

خلفه، أتى صوت منذر. في البداية اعتبر الجل صراخه مجرد فلتات أحد (الشماكرية) بعد هذيان عقل وتلفه، لكن رؤية أجيج النار مشِعّا من جهة النفق في آخر الشارع وقد اخترق الحلكة ناشرا حمرة يلتهمها اصفرار ويبتلعها سواد متماوج في السماء، جعل الإنذار حقيقة.

بدأ الركض وتسارعت الحركة المرتبطة بالحدث. كان مخرج النفق كفَاهِ ثعبان أسطوري ينفث لهيبه. عاد الخلق لملء الفضاء. كان مقر رجال المطافئ قريبا جدا من مكان الحدث بحكم أن شارع الأمير عبدالقادر يضمهما معا. مع صفارة إنذار شاحنة المطافئ وسيارات رجال الأمن بدا أن الأمر خطير جدا، بل إن خطورته مرتبطة بحيوية النفق وكونه ممر القطارات الوحيد بين شرق المغرب وباقي اتجاهاته. ربما تصاعد مقياس الاستنتاجات عبر الهواتف وبين المسؤولين على أعلى مستوى خوفا من أن يكون للأمر علاقة بعمل إرهابي.

بعض شرفات العمارات أضاءت بمصابيحها استفسارا حول هذه الصفارات. كانت عملية الإطفاء ناجحة وسريعة. نار وقد اتقدت لكنها كانت محاصرة في دائرتها التي انبعثت منها.

عاد المهمشون للظهور بعد أن كاد الليل يبتلعهم في سكون. أتى صبي في العاشرة من عمره، غابت عنه طفولته في تحدي مرارة اليومي والإدمان، بخدّين استرقا من جسده كل ما يحتاجانه للاتقاد وتركاه نحيفا وهاربا من كل نمو طبيعي. كان صوته خبرا إعلاميا انتظره فضول المستيقظين في شارع الأمير والجالسين بمقهى محطة الأمير:

(خيمة الروهاني احترقت، والفئران والهررة منتشرون في كل مكان.)

تَّلوّح يد الصبي بقارورة عطر شبه فارغة. ينادي متلاعبا بالحكي والحدث والقارورة:

.شكون يشري مني هذا العطر ؟ فيه البركة ديال الروهاني !

أخيرا بدتْ له مسافرة آتية للمقهى. ترصّدها الصبي مستفزا وطالبا منها أن تشتري قارورته. نهرته وصرخت في وجهه:

.ابتعدْ عنّي آ الشمكار، انتَ و الوسخ ديالك ! خزيت يا لطيف !

. الموسخة هي أنت. هذا أحسن من الرائحة الرخيصة التي تصبّينها على جسدك.

تنفعل المسافرة غاضبة وتحاول أن ترشقه بقارورة ماء بلاستيكية تحملها في يدها. يسارع الخطو واللعبة الجديدة التي اختلقها معها فيرمي رجله من دَرَج الرصيف، لكن حفرة جديدة فيه تسبّب له الانزلاق وتنفلت قارورة العطر من بين يديه حيث لم تمسكا بشيء بقدر ما تحمّلتا الرضوض والجروح الجديدة. يقوم مهرولا وهاربا بينما تحولت قارورته إلى شظايا مشتتة فوق الرصيف وطريق الشارع.

كان سعيد الحاكي متخذا جلسته في تناول فنجانه الخامس على جانب الرصيف ومتكئا على طاولته التي تحمّلت عياءه المتبقي من يقظة هذا اليوم الذي لم يكتمل، أو الذي بدأ لتوّه. لا يدري، أي يوم سينسب له هذه الاحداث، هل للبارحة أم للصباح المطل الجديد؟

تدحرج الجزء الأمامي لقارورة العطر أمامه. ما تزال علامتها بارزة: Nina Ricci, Fille D'Eve 1952.

تذكّر كلام الروهاني الذي نطق به أمامه. قام لجمع الشظايا والأجزاء. عاد لطاولته التي وجد أن السيدة المسافرة اتخذت كرسيا مجاورا لها فاقتعدته. خاطب نفسه:

(. فعلا إن هذا العطر أفضل من رائحة الكولونيا الرخيصة التي اغتسل بها جسد هذه الجالسة بقربي. كيف سأجمع وأرمّم شظايا هذه الحكاية الجديدة؟).

***

وكان السحَر الذي أخذ الروهاني لمقامه الجديد. مجرى الماء المنهمر بخريره وربوته الصغيرة التي اعتلاها مردّدا أذكاره. هذه المرة لازمته عبارة (الحال ولد الحال، دوام الحال من المحال). هل كان يستشعر دنو أجله. صرخت فيه الحاجة الميلودية بفعل العياء:

.ارقُدْ ونمْ !

لم تعجبه الطريقة. ارتعشتْ يده اليمنى وارتمت على عنقها:

.قلتُ لك العشاء الأخير.

لم تستطع الإفلات من قبضته. تصارعت أطراف الجسد وانقطع التنفّس عن الدماغ والعينين اللتين تحوّلتا إلى دائرتي بياض مُغيّب للوعي. رأت في مشهدها الأخير رجلا يبلغ طوله حوالي الأربعين مترا وتكتسي حُلّته بياضا يغطي حتى وجهه فلا تظهر له ملامح. سمعت ترديده أو ترديد صوت من السماء:

(علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) من سورة البقرة .

من أين أتتها الآية ؟ الله أعلم.

ذاك القمر الذي آثر الحضور وأراد أن يكون شاهدا على ما يقع، جعل سحابة توقّع لمشهده هذا، عرّاها بعد ذلك هذا السحر اللازوردي الأخير صفحة شفيفة موقعة على ما يقع. تبخّر فيها جسد الروهاني في دوامة عارجة للسماء، فيما استوى جسد الحاجة الميلودية خامدا فوق التراب.

هذا الذي لم تنفع أناملها حين القبض عليه في أن تشفع ل(مول الما) حتى يتخلّص من نوبتِه التي أرادها بعد العشاء الأخير وهديتِه التي أعطاها لسعيد الحاكي، هذا المتخبط بين شظايا قارورة نينا ريكشي:

.Fille d'Eve

هل تكون فعلا هي قارورة عطر Marie Rose، هذه التي بدا اسمها بخط عريض على ظهر غلاف مذكرات داخل هذا الصندوق العجيب الذي تسلّمه سعيد الحاكي ؟ !

تبخّرت حتى تلك السحابة الشفيفة مع بداية ضوء نهار جديدٍ سيغتسل بأشعة شمسٍ بالكاد بدأت تفتح رموشها ناشرة لنور فريدٍ.